شعوبُ العالمْ

٥

تونس

دار المعارف

تــونس

شعوب العالم
٥

تونس

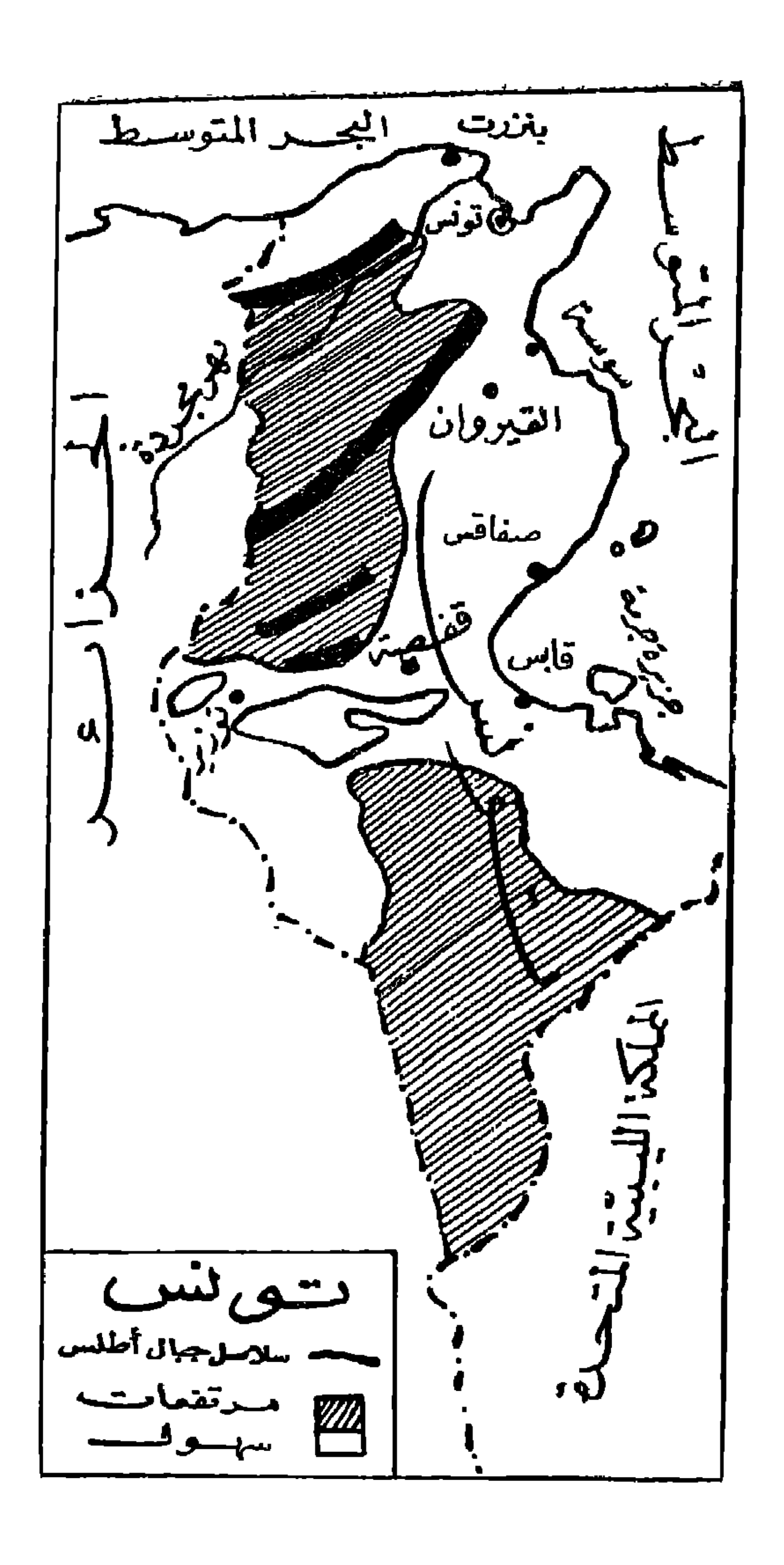
تأليف

حسن محمّد جوهر



دار المعارف بمصر
١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة ج. ع. م.



البحر المتوسط
بنزرت
تونس
سوسة
القيروان
صفاقس
قفصة
قابس
جزيرة جربة
المملكة الليبية المتحدة
تونس
سلاسل جبال أطلس
مرتفعات
سهول

تقديم

مرّت بشعوب الأرض وأممها ، منذ فجر التاريخ ، عصور متعاقبة ، بين يقظة وخمود ، ونهضة وركود ، وحياة نابضة بالقوة والعزة والكرامة والرفاهية ، وتردٍّ في حمأة الضعف والضعة والبؤس والشقاء والذل والمهانة .

ولقد ذهب الباحثون في علمي الجغرافية والاجتماع في تعليل ذلك مذاهب شتى ، ذهبت بتفصيلها وشرحها كتب قيمة كثيرة . ولقد رد بعضهم عللها إلى ظواهر كونية ، وردها بعضهم إلى عوامل جغرافية[1] . وعزاها بعضهم إلى عوامل بشرية ، كظهور الزعماء الأكفاء والقادة الموهوبين المخلصين في أمة من الأمم ، أو في شعب من الشعوب ، في الأوقات المناسبة ، والظروف المؤاتية في عصر من العصور ، وافتقارها إليهم في عصر آخر .

والشعب التونسي ككل الشعوب الإسلامية العربية منها وغير العربية ، مرت به في العصر الأخير فترة خضوع واستعباد ، تحمل فيها صنوفاً من المهانة والأذى ، وأغمض أجفانه على القذى ، وخدرت في أثنائها أعصابه فلم يعد يحس بأمجاد أجداده . ولكن هذه الفترة لم تدم لحسن الحظ طويلا

---

(١) اقرأ كتابي العالم الجغرافي هنتنجتن : (أ) المناخ والمدنية (ب) نبض التقدم .
Ellsworth - Huntington (a) Climate and Civilisation.
(b) The Pulse of Progress.

إذ تلتها فترة صحا فيها على صيحات بعض أبنائه الأحرار [1] ؛ فهب هبة قوية

(١) اقرأ كتاب الأستاذ على البلهوان : تونس الثائرة : نقتطف لك شذرات منه :
لقد كانت قرية تازركة أول مسرح للبطش الفرنسى بجهة الدخلة . . . وقد عاث الجنود فى البيوت فسادا ونسفا ونهبا لغرض ظاهر للعيان وهو إلحاق الضرر بالأهالى بتهديم بيوتهم ، وتحطيم ما فيها من أثاث ومدخرات ومؤن . . . هدم بيت محمد قاسم الزكار نسفا بالديناميت ، ونسفت بالديناميت أيضا بيوت صالح وعلى ومحمد بر ينيس ، وحطم جميع ما فيها من أثاث... وأتلف الجنود جميع ما فى بيت خدوجة ناجية ، وهى أرملة تعيش مع بناتها الأربع ، فدخل الجنود عليها ، وسرقوا جهاز البنات . . . ولم يكتف الجنود بتلك الأعمال الوحشية ، بل أرادوا المس بدين تونس وإهانته ، فدخلوا مسجد القرية ، ومزقوا مصاحف القرآن وبعض كتب الحديث الشريف والفقه الإسلامى .

وكان التنكيل بالتونسيين يرمى إلى أذيتهم أذية عميقة والمس بتقاليدهم وروحانياتهم . ولذا أطلقت يد الجنود فى تلك الليلة على النساء . . . واعتدت على شرفهن وكرامتهن . وكان التحقيق فى هذا دقيقاً صعباً . وقد استعملت الدكتورة الآنسة غيلب والقابلة السيدة بدرة الورتانى كثيراً من اللباقة للحصول على بعض المعلومات . وهذه بعض الفقرات من تقريرهما .

(أ) ج . ب . بنت سنها ٢١ سنة اغتصبت . . .

(ب) ب بنت س : سنها ٢٥ سنة كانت حاملا فى شهرها الثالث ، تتبعها الجنود وضربوها وأجهضوها .

(ح) ه . بنت س . ب . سنها ٢٥ سنة نزعت ملابسها واغتصبت بينما كان السلاح مصوباً نحو عنقها .

(د) م . بنت ك . ج . ا . سنها ١٦ انتشلت من فراشها ، وعندما هم الجند باغتصابها فرت هاربة وألقت بنفسها فى بئر . . .

وغيرهن كثير .

ويظهر أن حوادث الاغتصاب كانت أفظع الحوادث التى دارت فى تلك الليلة المزعجة . وذكر لنا أن كثيراً من الأمهات كن يخرجن بناتهن من الغرف ، ويدفعن بهن إلى البئر للارتماء فيها . . .

ولمّ شعثه، وجمع شمْل أبنائه ، ووجّههم إلى الغاصب الدخيل ، فكافحوه كفاحاً مريراً غشيتهم خلالها موجة عاتية من التعذيب والتنكيل ظنها الخصم سبيل الهزيمة وطريق الدمار . . . ولكن هذا الشعب وقف كالمارد الجبار مناضلا عن كيانه ؛ مطالباً بحقه ، وبعد نضال طويل . . . أحرز التونسيون فى ٣ يونية سنة ١٩٥٥ استقلالهم الداخلى على أساس طور العلاقات التونسية فى المستقبل نحو الاستقلال الكامل للبلاد !

وقد انضمت تونس إلى جامعة الدول العربية فى أول أكتوبر عام١٩٥٨ ، وقد كانت منضمة إليها من قبل بروحها وشعورها ! لأن أبناءها عرب يفخرون بعروبتهم ، ولو كره المنافقون !

وإنا لنرجو الله مخلصين أن يسدد خطا الشعب التونسى الشقيق نحو العزة والكرامة والمجد ، وأن يبصره بما فيه نفعه وخيره ، وأن يجنب من يتسلم مقاليده من أبنائه هوى النفوس وذلات الآراء ، ووسوسة شياطين الناس ، حتّى ينال استقلاله التام بسلام ، ويسير مع ركب شعوب الأمة العربية قدماً إلى الأمام آمين !

= ومن أفظع ما ارتكبته العساكر الفرنسية فى قرية تازركة قتل الرضع دوساً بالأقدام ورمياً على الأرض .

وما حدث فى قرية تازركة حدث فى عشرات من القرى الأخرى . . . فأصبح لذلك كل تونسى غير آمن على حياته ، ولا على حريته ، ولا على رزقه ، وهو يتوقع الاعتداء عليه فى كل خطوة يخطوها فى الشارع ، أو أن يهاجم فى عقر بيته ، أو يؤخذ إلى السجن أو المعتقل فى أية ساعة من النهار أو الليل ، لا لذنب اقترفه ، ولكن لأنه تونسى .

١

تقع تونس فى مكان وسط من الساحل الأفريقى الشمالى ، حيث يتغير اتجاهه العام ، ويسير من الجنوب إلى الشمال ، بدلا من أن يستمر فى امتداده نحو الغرب ، وبهذا تخرج تونس من المنطقة الصحراوية ، وتدخل فى حيز المنطقة التى ينزل فيها المطر غزيراً فى الشتاء ، فتخصب أرضها ، ويجود زرعها ، ويكثر عمرانها ، ولهذا أطلق عليها القادمون من الشرق عبر حف الصحراء ، تونس الخضراء .

وإن موقعها حيث همت أفريقية بأن تقترب من أوربة ، وهمت أوربة بأن تتصل بها ، فدفعت بأشباه جزائرها نحوها ، ثم نثرت جزائرها بينهما ، فيسرت بذلك هجرة سكان كل من القارتين إلى القارة الأخرى ، وقسمت البحر المتوسط بينهما قسمين : شرقيًّا تشرف عليه تونس بساحلها الشرقى ، وغربيًّا ويطل عليه ساحلها الشمالى : إن هذا الموقع الجغرافى البديع له أثر كبير فى تاريخ سكانها وخلقهم وأشكالهم وطباعهم وخصائصهم وعاداتهم وحياتهم الاجتماعية بوجه عام .

٢

ولا نعلم شيئاً يذكر عن أصل سكان تونس الأولين ! فهل كانوا جماعة بدائية وفدت عليها من آسيا ، موطن الإنسان الأول[١] مدفوعين بالجفاف الذى أصاب وسطها وبعض بقاعها الغربية الجنوبية فى العصور الواغلة فى القدم وكان سبباً فى هجرة جماعات كثيرة من سكانها نحو جهاتها الشرقية والجنوبية الغربية ، ومن الأخيرة إلى شمالى أفريقية سالكين إحدى الطريقين : الطريق الشمالى عبر برزخ السويس ، مارين بمصر ، قبل العصر المطير أو بعده مباشرة[٢] ، ثم ليبيا ؛ أو الطريق الجنوبى عبر بوغاز باب المندب[٣] إلى شرقى أفريقية ، ومنه إلى وسطها ، ومنه إلى شماليها ، عبر الصحراء الكبرى فى عصر كانت كثيرة الأمطار والنبات ، أو كانوا جماعة أوربية ، جاءوا إليها بسبب البرد الشديد الذى أصاب أوربة فى آخر عصر من عصور الثلج[٤] ، عبر مضيق جبل طارق ، منتشرين فى مراكش والجزائر وتونس .

---

(١) يرى بعض العلماء أن موطن الإنسان الأول غربى آسيا ، ويرى آخرون أنه بمكان ما فى غربى آسيا أو فى شمالى أفريقية .

(٢) لقد كانت مصر فى إبان العصر المطير غير صالحة لسكنى الإنسان ، ولا لعبوره إياها — وحاله البدائية حاله — إذ أنها كانت مغمورة بمياه النيل كلها أو جلها .

(٣) كان مضيق باب المندب إذ ذاك أقل اتساعاً مما هو عليه الآن .

(٤) لقد مرت على أوربة عصور ثلجية أربعة .

وعلى أية حال فقد وصلت تلك الجماعة ، التى لا نعرف عنها شيئاً بيناً ، إلى تونس ، وعاشت فيها ما شاء الله لها أن تعيش !

ولم تلبث تلك الجماعة الأولى طويلا حتى وفدت عليها جماعات أخرى بيض الوجوه[١] ، معظمهم سود الشعور ، عسليو العيون ، وأقلهم زرق العيون ، حمر الشعور[٢] ، ويطلق عليهم العلماء اسم البربر !

ولقد اختلف فى علة تسميتهم بهذا الاسم ! فيرى بعض العلماء أنه مشتق من كلمة يونانية كان يطلقها الإغريق على الشعوب أو القبائل المتبدية ، على حين يرجعها بعضهم إلى الكلمة العربية برابرا ، وهى كلمة أطلقها العرب أيضاً على سكان بلاد النوبة ! وقد يكون أصلها لفظة برابراتا (Beraberata) التى وردت فى كتابات المصريين القدماء فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ! على أن الفرض الأخير يتعارض مع الاسم

---

(١) يقطع الدكتور إبراهيم رزقانه بأنهم من أصل أفريقى ، وأنهم من نسل من يسميه الإنسان الإفريقى القديم أو الحبشى القديم ، وأنهم بعد أن استقروا فى شمالى أفريقية ما شاء الله لهم أن يستقروا هاجر بعضهم إلى أوربة عبر إيطاليا وأسبانيا وافتتحوا حضارة العصر الحجرى القديم الأعلى بغربيها ، ويصفهم بأن قاماتهم متوسطة الطول ، وبشرتهم تميل إلى السواد ورأسهم شديدة الطول ، وشعرهم أسود ناعم وجبهتهم متراجعة ، وقنطرة أنوفهم عالية ، وعظام خدودهم ناتئ بعض الشىء (العائلة البشرية ص ٢٨٦ — ٢٨٧) .

(٢) يقول سليجمان «إنهم لشقرتهم يمكن أن يعتقد الإنسان أنهم إسكتلنديون أو إيرلنديون ، وأن الأولاد فى سن ١٥ ، ١٦ يمكن أن يعتقد الإنسان أنهم إنجليز لولا أن نسبة الشعر الأسود بينهم أكبر منها عند الأولاد الإنجليز . ثم إن الشقرة التامة عندهم موجودة ؛ فتجد فيهم من يشبه سكان شمالى ألمانيا ، ولكن هؤلاء أقلية . . . إلخ (ص ٢٨٨ العائلة البشرية) .

الذى كان يطلقه المصريون القدماء على جيرانهم الغربيين ، الذين كانوا يسمونهم « ليبو » ، ويصورونهم بيض الوجوه فاتحى الشعور .

ولقد اختلف الجغرافيون فى تعيين موطنهم الأول ، الذى هجروه لسبب من الأسباب ، وجاءوا إلى تونس وغيرها من أقطار شمالى أفريقية :

ففريق يرى أنهم آتون من مكان ما فى آسيا[١] كأسلافهم ، ويرى

---

(١) يرى بعض المؤرخين أنهم كنعانيون هاجروا من موطنهم الأول ، مخترقين مصر ولوبيا ، منتسبين لمازيغ بن كنعان ابن سام بن نوح ، فدعوا أنفسهم « الأمازيغ » وفسروا اللفظ على أنه يعنى السادة الأحرار . . . وقد ذكر ابن خلدون أن البربر ارتحلوا مما بين النهرين وأنهم أقاموا بعض الوقت فى مصر قبل أن يقصدوا إلى شمالى أفريقية «خوفاً أو طمعاً » كما فعلت من بعد دولة الحماديين جماعة عظيمة من الأعراب من صحراء مصر « ولقد ذهب هذا المذهب البحاثة الفرنسى دوما ، إذ قرر أن البربر من أبناء كنعان ، وأن بينهم وبين أهل الصعيد المصرى وجوه شبه عدة ، وأيد غيره هذا الرأى بأنه يوجد حتى اليوم » فى الزناقة ، وهى قرية فى جنوبى الجزائر . . . رسم بربرى عتيق ، منقوش على صخر يمثل الإله المصرى أمون بصورة كبش على رأسه شمس مماثلة لصورة أمون رع المنقوشة على أحد جوائط معبد الكرنك » . . . من مقالة للأستاذ محمود عزمى ، تحت عنوان : بلاد المغرب : الكاتب المصرى .

وإن هذا الرأى لرأى عجيب ؟ فما أوجه الشبه التى يجدها البحاثة الفرنسى بين البربر وكلهم بيض الوجوه ، وبعضهم زرق العيون ، حمر الشعور وأهل الصعيد المصرى سمر الوجوه . . . ولقد فطن المصريون القدماء إلى الفارق العظيم بينهم – أى المصريين جميعاً ، بله سكان الوجه القبلى – وبين اللوبيين وهم البربر فى الدل والشكل واللون ، فصوروهم بيض الوجوه فاتحى الشعور ، بينما صوروا أنفسهم سمر الوجوه ، سود الشعور أما الرسوم التى وجدت فى إحدى قرى بلاد المغرب ، والتى تمثل الإله المصرى أمون رع . . . فانظر لتفسيرها ص (١٥) . (المؤلف) .

فريق آخر أنهم آتون من أوربة ، مارين ببعض البرازخ التى كانت تيسر وصول سكانها إلى أفريقية فى العصور البعيدة ، ويعزز الفريق الأخير رأيه بلمحاتهم الأوربية .

على أن الرأى الغالب أنهم جاءوا عبر البحر المتوسط [١] من بعض جزائره ، أو أقاليمه الشمالية الشرقية ، وأنهم كانوا على درجة كبيرة من القوة والرقى مكنتهم من غزو مصر والسيطرة عليها ، فى بعض عصور ما قبل التاريخ ، ويرى سير فلندرز پترى العالم الأثرى الكبير أنهم منشئوا الحضارة المصرية الأولى [٢] .

ويرى بعض المؤرخين أن قوم حور أو أوزير [٣] من الليبو ، لأن

---

(١) يرى البعض أن رحلتهم من موطنهم الأصلى ، عبر البحر الأبيض المتوسط إلى شمالى أفريقية مبعث كثير من الأساطير الإغريقية التى نظمها شاعرهم هومر ، كمغامرات يولسيوس وغيره من أبطال تلك الأساطير .

(٢) لقد كانت هذه الحضارة — ومدتها ألف سنة أو تزيد قليلا : بدأت منذ نحو عشرة آلاف سنة — تمتاز بميزات أهمها : إنشاء المدن الكبيرة ، وإقامة الأسوار القوية حولها ، لاتقاء غارات الأعداء ، وكثرة استعمال السفن للتجارة ، والقوارب للصيد ، وتقدم صناعة الخزف ، وزخرفة الأوانى الفخارية بالرسوم الهندسية الدقيقة ، واستخدام حجر الصوان فى صناعة الرماح المتفرعة ، وبعض الآلات الزراعية الأولية ، وظهور معدن النحاس واستخدامه فى صنع بعض الآلات ، واستعمال الأمشاط للزينة ، وانتعال الأخفاف .

(٣) كان يعتقد المصريون أن أوزير إله الخير — وليس غريباً وافداً من الغرب أو الجنوب — هبط من السماء ومعه أخته وزوجته إيزيس ليعيشا بين الناس ينادمان ويأكلان ، ويعلمانهم الحكمة ويسلكان بهم الصراط المستقيم ، ويبتدع لهم أوزير طرق الزراعة وأساليبها وآلاتها . . . وتستنبت لهم إيزيس القمح إلخ .

أساطيرهم تشير إلى أنهم آتون من الغرب ، إلى غير ذلك من الآراء .

وللبربر لغة خاصة بهم ليس لها حروف يكتبونها بها ، وقد غلبت عليها اللغة العربية ، كما غلبت على لغات معظم الشعوب التى دخلت فى دين الإسلام ، ولكن لا يزال يتخاطب بها بعض جماعات البربر فى هضبة مطماطة وجزيرة جربة .

ولقد كان البربر فى عصر ابن خلدون جيلاً متميزاً من الناس .

ولقد وصفهم بقوله :

البربر جيل من الآدميين ، سكان المغرب على القدم ، ملئوا البسائط والجبال ، من تلوله وأريافه ، وضواحيه وأمصاره ، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ، ومن الخصاص والشجر ، ومن الأشعار والأوبار ، ويظعن أهل العز منهم والغلب لانتجاع المراعى ، فيما قرب من الرحلة ، لا يتجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس ، ومكاسبهم الشاء والبقر ، والخيل فى الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم ، شأن العرب .

ومعاش المستضعفين منهم فى الفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين من أهل الانتجاع والإظعان فى إنتاج الإبل ، وظلال الرماح وقطع السابلة ، وأكثر أثاثهم من الصوف ، ويشتملون الصماء[1] بالأكسية المعلمة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤوسهم فى الغالب حاسرة ، وربما

(١) الصماء : البردة .

يتعاهدونها بالحلق ، ولغتهم (الشلحة) من الرطانة الأعجمية ، متميزة بنوعها ، وهى التى اختصوا لأجلها بهذا الاسم .

والبربر قبائل كثيرة ، وشعوب[1] جمة وهى هوارة ، وزناتة ، وخريشة ، ونفزة ، وكتامة ، ولواته ، وغمارة ، ومصمودة ، وصنهاجة

وما كان للبربر من الآثار ما يشهد أخبارها كلها بأنه جيل عزيز على الأيام ، وأنهم قوم مرهوب جانبهم ، شديد بأسهم ، كثير جمعهم ، مضاهون لأمم العالم وأجياله من العرب والفرس والروم .

استقر البربر (الليبو) فيما طاب لهم من تونس ، وغيرها من أقطار شمالى أفريقية بعد أن دفعوا بسكانها الأولين إلى أطراف الصحراء ومجاهل الجبال ، إلا من خضع لهم وأقام على خسفهم ؛ ولم يلبثوا أن زرعوا أرضها ، وأقاموا المدن فيها ، وأحاطوها بأسوار عالية متينة ، ويبدو أنهم لم يقطعوا صلاتهم بموطنهم السابق ، وأنهم ظلوا يتجرون مع أهله حتى حل بموانيهم الفينيقيون سادة البحار الأسبقون !

ومما لا ريب فيه أن المصريين القدماء جاءوا هذه البلاد فاتحين أو مبعوثين أو تجاراً ، وأقاموا فيها ما شاء الله لهم أن يقيموا ، وشيدوا مساكن ومعابد فيها ، قبل قدوم الفينيقيين إليها بقرون عدة ، إذ أن بعض علماء الآثار المنقبين كشفوا عن لوحات فضية عليها نقوش كباش مصرية ، وكتابات بالهيروغليفية ! ولكن ما كشف من آثار مصرية حتى الآن غير

---

(١) انظر كتاب العائلة البشرية : دكتور إبراهيم أحمد زرقانه .

كاف لتعيين تاريخ قدومهم إلى تلك البلاد تعيناً مضبوطاً ، وتحديد مدة إقامتهم فيها تحديداً دقيقاً ، ولعل الرسم الذى وجد فى قرية الزناقة على صخر يمثل الإله المصرى أمون بصورة كبش على رأسه شمس من آثارهم!

ويبدو أن بعض العناصر الجنسية الأخرى قد هبطت تونس، واستقرت فى جزائرها وبعض بقاعها الساحلية ، فى زمن لا نعرفه على وجه التحقيق ، ولكنه بعد مجىء البربر إليها على أية حال . فنى جزيرة جربة وبعض أجزاء الساحل الشرقى لتونس يسكن جيل متميز من الناس ، يختلفون عمن حولهم من السكان ، فهم عراض الرءوس بين أناسى كلهم طوالها ، ويمتازون فوق ذلك بقصر القامة ، وبأن وجوههم عريضة وقصيرة ، وجباههم مستديرة ، وأنوفهم قصيرة ، وهم من الجماعات التى يطلق عليهم دكتور إليت سميث « الأرمن البحريين » ويسميهم دكتور فلير « الباحثين عن المعادن» . وهم فى رأيه من سكان شرق البحر المتوسط ، وأنهم كانوا قديماً — أى قبل استقرارهم فى تونس — يطوفون فى سفنهم بشتى أنحائه ، ويهبطون بعض الأقطار المطلة عليه ، وربما نفذوا إلى المحيط الأطلسى ، وأناخوا ببعض أقطار غربى أوربة — باحثين عن القصدير والنحاس والذهب . وتوجد ذرارى تلك الجماعة فى الوقت الحاضر فى البقاع الساحلية بجنوبى إيطاليا وشرقى صقلية وجنوبيها الشرقى ، وفى أجزاء ساحلية مختلفة من أسبانيا وفرنسا وغربى بريطانيا وشرقى أيرلاند وجنوب غربى النرويج [١] .

(١) انظر كتاب العائلة البشرية : للدكتور إبراهيم أحمد زرقانة .

٣

وجاء الفينيقيون إلى تونس ، أول الأمر ، تجاراً ، حاملين مصنوعات بلادهم[١] ، ومصنوعات الأقطار المحيطة بها ليستبدلوا بها منتجاتها ومنتجات جاراتها . ولقد سال لعاب التجار الفينيقيين ، حين رأوا التبر والعاج بين البضائع التى كان الليبيون يعرضونها عليهم للمبادلة ، ونقلوا خبر



الفينيقيون يعرضون بضاعتهم على أهل أوربة

(١) Ancient Carthage in The light of Modern Excavation : By Count Byron Khun De Porok. N. G. M. April 1924.

ذلك ، عند إيابهم إلى فينيقية إلى شيوخ مدنهم ، فسارعوا إلى إعداد بعثات قوية ، يصحبها حرس شديد ، وأرسلوها إلى بلاد الليبو ، فقامت بتأسيس مراكز تجارية قوية فى مواضع استراتيجية على سواحلها ، وسرعان ما انتزعوا من السكان السابقين — البربر — تجارة البحر والبر !

والفينيقيون سلالة من السلالات السامية يمتون بصلة القربى إلى العاموريين والكنعانيين والعبرانيين ، ويُعتقد أنهم كانوا يسكنون أول الأمر فى مكان ما على الساحل الغربى للخليج الفارسى ، وأن فقر موطنهم هذا ، وجدب الفيافى والقفار التى تليه غرباً ، دفعهم إلى ركوب هذا البحر الهادئ ، طلباً للرزق ؛ فكان المدرسة الأولى التى تعلموا فيها أصول الملاحة وفنونها .

أقام الفينيقيون على شواطئ الخليج الفارسى ما شاء الله لهم أن يقيموا ، ثم غادروها لسبب غير معروف[١] إلى بلاد الشام ، وطوفوا فى أرجائها ، ومالت بهم طبيعتهم إلى أن يختاروا لمستقرهم رقعة ضيقة خصيبة مشرفة على البحر المتوسط ، ومرتكزة من الشرق على مرتفعات الجليل وسفوح جبال لبنان الكبرى ، ممتدة بين جبال كارمل فى الجنوب ، وجبل كاسيوس فى الشمال ! وعلى ساحل هذه الرقعة الضيقة قامت مدنهم الشهيرة صور وصيدا وعكا وبيروت وبيبلوس ، وشيدوا فيها مصانع ، بعضها للنسيج[٢]

---

(١) يعزو بعض الجغرافيين ذلك إلى تحركات عامة وهجرات جماعية ، شملت بنى عمومتهم العبرانيين والكنعانيين والعاموريين ، فهجروا مواطنهم الأولى إلى بلاد الشام أيضاً .

(٢) لقد أطرى هومر فى أشعاره تفوق الفينيقيين فى صنع المنسوجات وصبغها بأصباغ خاصة ابتدعوها ، وتطريز الثياب ، وافتنانهم فى صنع المعادن المختلفة ، وبخاصة الذهب والفضة ، والأحجار الكريمة والكهرمان والزجاج .

وبعضها لصنع الزجاج[١] ، وأخرى لصياغة الذهب والفضة والأحجار الكريمة !

ولقد برع الفينيقيون فى علوم الفلك والهندسة والحساب[٢] ، وتفوقوا بوجه خاص فى فن الملاحة وابتدعوا الحروف الأبجدية التى أصبحت أساساً اتخذه معظم الأمم لحروفهم .

ولقد استعان الفينيقيون بأرز لبنان على صنع سفنهم المشهورة ، التى جابوا بها سواحل البحر المتوسط ووصلوا عليها إلى معظم جزائره ، فكونوا بذلك من حوض ذلك البحر العتيق وحدة تجارية اقتصادية وإن لم تكن سياسية[٣] .

وعلى الرغم من أن الفينيقيين كانوا أمة واحدة ، تربطهم روابط الجنس واللغة والدين والصفات ؛ فإنهم لم يحاولوا تكوين دولة واحدة ، متماسكة الأجزاء ، فقد كان لكل مدينة من مدنهم شأن يغنيها عن المدن الأخرى ! ولكن رغم ذلك التفكك فقد أصبحوا بفضل مهارتهم الفائقة فى الصناعة ، وكفايتهم الممتازة فى التجارة ، مضرب الأمثال فى الغنى والأبهة والجاه .

ظلت المستعمرات الفينيقية المبعثرة على شواطئ البحر المتوسط ، وفى بعض جزائره مراكز تجارية محضة ، ولم تحاول أن تمد نفوذها فى البقاع

---

(١) لقد نقل الفينيقيون صناعة الزجاج من مصر ، ولكنهم برعوا فيها ، فكانوا يصنعون منه ما يشبه الأحجار الكريمة .

(٢) الفينيقيون هم الذين علموا أهل أوربة المقاييس والمكاييل .

(٣) التيارات السياسية فى حوض البحر المتوسط للأستاذ محمد رفعت .

المجاورة لتلك المراكز أو تسيطر على سكانها ! ولقد شبه بعض الكتاب هذه السياسة التجارية للفينيقيين بسياسة بعض الدول الغربية فى الصين قبل نهضتها الأخيرة[١] مع فارق واحد ، وهو أن الفينيقيين ، على الضد من الغربيين ، لم تكن لهم جيوش جرارة ، وأساطيل قوية ، تسارع إلى نجدتهم إذا ما ضيق عليهم الخناق ، أو هددوا بالطرد ، ولهذا كانوا فى معظم الأحيان ، إذا ما نشأ خلاف بينهم وبين أمة أجنبية ، أو مع الوطنيين ، ينذر بحرب ، يفضلون هجر المكان على الدخول فى نزاع ، لا يعرفون نتائجه ، لأنهم كانوا تجاراً ، ولم تكن من مصلحتهم إثارة الحروب التى تبور معها تجارتهم .



الفينيقيون ينزلون إلى حيث أنشأوا مدينة قرطاجنة

(١) التيارات السياسية فى حوض البحر المتوسط للأستاذ محمد رفعت .

٤

أما قرطاجنة التى أنشأها الفينيقيون على رأس فى الجانب الشمالى الغربى من الخليج المسمى الآن خليج تونس، فقد شذت فى ذلك عن المستعمرات الفينيقية الأخرى[١] ، فقد أغرى أهلها حسن موقعها ، وما نتج عنه من اتساع تجارتها ، ونمو ثروتها ، بالطموح إلى تكوين إمبراطورية تشمل الجزء الشمالى من تونس ، والركن الشمالى الشرقى من الجزائر ، وبعض جزائر البحر المتوسط ، وتسيطر على المستعمرات الفينيقية المجاورة ، وتعتمد على جيش مدرب وأسطول قوى ، تمكنت بهما من وقف الزحف الإغريقى من الشرق والرومانى من الشمال نحو السواحل الأفريقية .

ولقد نمت مدينة قرطاجنة نمواً سريعاً ، وزاد عدد سكانها حتى بلغوا فى تقدير بعض المؤرخين ٧٠٠ ألف نسمة أو يزيدون ! وشيدت فيها القصور الفخمة ، والمعابد الضخمة ، والدور الشاهقة[٢] ، والحمامات والمكتبات العامة .

---

(١) لم تكن قرطاجنة أول المستعمرات الفينيقية فى تونس ، فقد أسست فيها عتيقة Attica فى سنة ١١٠٠ ق . م . أما قرطاجنة فقد أسست فى سنة ٨١٤ ق . م . أى بعدها بثلاثة قرون تقريباً .

(٢) كانت دورها تتكون من سبع طبقات أو تزيد .

ولقد كانت مدينة قرطاجنة يحيط بها من جهة البحر سور قوى[1] على مقربة من ساحله، أما من جهة البر فقد كانت تحصيناتها أقوى وأدق إذ كانت تتكون من خندق عميق ، يليه من الداخل سور متين ، يتلوه سور آخر أضخم وأعلى[2] وأقوى ذو أبراج ، بين كل اثنين منها اثنان وخمسون متراً ، وكان فى جوف ذلك السور الضخم بيوت لنحو أربعمائة فيل ، وفوقها اصطبلات لنحو أربعة آلاف فرس ، وعلى مقربة من السور من الداخل ، ثكنات لراكبي الفيلة والخيل ، ولنحو عشرين ألفاً من المشاة ، وكان بين السور والبحر ميناء واسع ، تأتى إليه السفن المشحونة بتجارة البحر ، وترد إليه القوافل تحمل تجارة البر ، ولكن فخر مدينة قرطاجنة ميناؤها الصناعى العظيم ، المحفور داخل السور ، فقد كان طوله ١٤٠٠ قدم ، وعرضه ١١٠٠ قدم ، وتحيط به الأرصفة والمخازن ، وكانت تصل إليه السفن مارة فى قناة ، اتساعها سبعون قدماً ، وقد كانت تقفل هذه القناة فى زمن الحرب سلسلة متينة من الحديد ، وتخرج من هذا الميناء العظيم قناة تدخل إلى ميناء صناعى آخر حفر فى قلب المدينة ، لترسو فيه السفن الحربية ، وكان مستدير الشكل ، طول قطره ١١٠٠ قدم ، أقيمت حوله أرصفة معدة لرسو مائتين وعشرين سفينة حربية ! وقد تركت جزيرة فى وسط ذلك الميناء الداخلى بنى عليها قصر فخم لأمير

---

(١) كانت الأسوار تحيط بشبه الجزيرة التى بنيت قرطاجنة على جزء منها .

(٢) كان علو ذلك السور يتراوح بين خمسين وستين قدماً ، وسمكه ثلاثون قدماً .

البحر أو قائد الأسطول !

ولقد كان القرطاجنيون طوال القامة ، بيض الوجوه ، يحفون شعور رءوسهم ، ويطلقون لحاهم مدببة ، وكانوا يلبسون جلابيب فضفاضة ملونة ، وقلنسوات طويلة مخروطية الشكل أو عمائم، وينتعلون الأحذية أو الصنادل .

ولقد كانوا نساء ورجالاً مغرمين بالتزين بالحلى ، مولعين بالعطور . وكانوا يسرفون فى الطعام والشراب ، ويحيون حياة طليقة أساءت إلى سمعتهم بين جاليات الشعوب المختلفة الأخرى فى مدينتهم !

أما نساؤهم فكن محترمات ، يشاركن الرجال فى كثير من الأعمال ، فقد كان منهن قسيسات أو كاهنات !

وكان يسكن قرطاجنة جاليات كبيرة من المصريين والإغريق والرومان وغيرهم من الأمم الأخرى ! وكان يرى فى شوارعها غير أهلها والفينيقيين الآخرين الوافدين من المستعمرات الفينيقية الأخرى، والسكان الأصليين من البربر ، تجار مصريون ، وأسبانيون ، وغاليون حمر الشعور ، وسودانيون من السودانين الغربى والشرقى ، وزنوج من سكان غربى أفريقية الجنوبى !

وقد شيدت تلك الجاليات الأجنبية معابد لها ، أضخمها وأفخمها معابد إيزيس وأوزيريس المصرية ، والمعابد الإغريقية . وكانت شوارع المدينة الرئيسية تؤدى كلها إلى تل مرتفع فى وسط المدينة ، أقيمت عليه قلعة (البرسا) التى كانت تحيط بها أسوار قوية بنيت فى داخلها دار للخزانة ، ودار لسك النقود ، وفى وسط تلك القلعة ، وعلى رأس التل

يطول معبد أشمون البديع ، الذى كان يصل إليه المتعبدون بسلالم عددها ستون ! وفيه أقيمت تماثيل لإله الشمس (بعل هامان) وإلهة القمرتانيت پنى بعل ، أقدس إلهين عند القرطاجنيين .

ولقد كان إله القرطاجنيين بعل هامان مغرماً بالضحايا البشرية ، أو هكذا صوره كهانه لعباده ، ولهذا السبب كان القرطاجنيون — وبخاصة فى وقت الشدة والضيق — يقدمون له مئات الأطفال والفتية والفتيات من أبناء البيوتات الكبيرة ! وكانت تقف الأمهات ، غير متوجعات أو شاكيات ، بينا يرين فلذات أكبادهن يوضعون بين يدى الإله ، المتعطش للدماء ، فينزلقون من بينهما إلى الأتون المتقد !

ومن أغرب وأطرف ما يروى أن جيوش القرطاجنيين كانت مشتبكة ، فى يوم من الأيام ، فى حرب طاحنة مع جيوش الأعداء ، ولما لم ترجح كفة جيوشهم ، على الرغم من توسلات الكهان للإله بعل هامان ودعائهم إياه أن يكتب النصر لها ، ظنوا أنه عليهم غاضب ، وأنه سوف لا يرضى عنهم إلا إذا قاموا بتقديم الضحايا البشرية له ؛ فسيق الفتيات والفتيان إلى المعبد زمراً ، وأخذ الكهان يضحونهم واحداً بعد واحدة ، ولم يثقل أولئك الضحايا كفة جيوشهم فترجح فتنتصر ، وكان قائد الجيش مع الكهان حاضراً ، ولما أتاه الخبر بأن العدو صامد فى مكانه صمود الطود الراسخ ، لا يتزعزع ولا يتزحزح رمى بنفسه فى نار بعل الموقدة ، مضحياً بها ، ابتغاء مرضاته وكسب المعركة !

٥

ولما لمح القرطاجنيون الخطر الإغريقى الزاحف من الشمال الشرقى ، سارعوا إلى التحالف مع سكان بعض جزائر البحر المتوسط ، وسرعان ما اصطدمت بعض سفنهم الحربية بالسفن الإغريقية ، ونشبت بينهما موقعة بحرية تغلبت فيها أساطيل القرطاجنيين وحلفائهم على الأسطول الإغريقى ، فوضع ذلك النصر حداً للزحف الإغريقى ، ولكنه لم يقض على قوة الإغريق قضاء مبرماً .

ولقد حدت سياسة الحذر بالقرطاجنيين إلى أن يقوموا بتحصين مستعمراتهم تحصيناً قوياً ، ويضعوا فيها حاميات ، وأعقب ذلك احتلالهم للجزائر التى لم يكن بينهم وبين أهلها محالفات كجزيرة مالطة وجزائر البليار ، وأمدوها بالسفن والجند ! ولما شعروا بالزحف الرومانى الآتى من الشمال ، سارعوا إلى عقد معاهدة تجارية مع روما تنظم تبادل البضائع بينهما ، وتحدد مناطق نفوذ كل منهما .

وعلى الرغم من أن التجارة كانت شغل القرطاجنيين الأول ، فإنها لم تلههم عن استغلال الأراضي الواسعة الخصيبة ، الواقعة فى جنوب قرطاجنة ،

فقاموا بإرشاد ماجو [١] ، أمهر علمائهم فى الزراعة بزراعتها [٢] معتمدين فى ذلك على الوطنيين (البربر) والأرقاء !

ولقد كان القرطاجنيون أول من قاموا باستكشافات جغرافية بحرية واسعة المدى فقد قام هانو [٣] القرطاجنى بكشف غربى أفريقية ، وترك لنا وصفاً شيقاً عن رحلته [٤] ، كما قام أخوه هملكو برحلة إلى إنجلترا وأيرلندة ، كشف فى خلالها معظم سواحل غربى أوروبة !

ولقد غنت قرطاجنة زماناً قال قائلها فى أثنائه : لا يجرؤ رومانى أن يستحم فى البحر الأبيض المتوسط إلا بإذننا وبذلك بلغت القمة ، وتم لها

---

(١) لقد ترك ماجو كتاباً قيما فى الزراعة ، ترجمه علماء الرومان ، واستعانوا به فى الشئون الزراعية فى بلادهم .

(٢) يرى البعض أن القرطاجنيين نقلوا الزيتون من الشام إلى شمالى أفريقية ، ومن أفريقية انتقلت زراعته إلى أسبانيا .

(٣) لقد كانت رحلة هانو تجريدة استعمارية ، وكان قوامها أسطولا قوياً ، عدد سفنه ستون سفينة عليها عدد عظيم من الرجال المسلحين والنساء ، ومشحونة بالمؤن والذخائر ، طافت بساحل أفريقية الغربية ، وقامت بتأسيس مدن ، وتشييد معبد لإله البحر ، وصادق بعض رجالها بعض السكان ، وشاهدوا الحيوانات المفترسة كالفيلة والغوريلات ، واصطادوا ثلاث غوريلات ولما لم يستطيعوا استئناسها ، قتلوها وسلخوها ، وعادوا بجلودها إلى قرطاجنة ، ورأوا قبائل متوحشة يلبسون جلود الحيوانات ، فنفروا منهم ورموهم بالحجارة . . . .

(٤) يزعم البعض أنه قد كشف فى البرازيل على وثيقة تاريخية ، مكتوبة بالحروف الفينيقية القديمة ، تثبت أن الفينيقيين قد كشفوا أمريكا قبل أن يكشفها الشماليون — سكان النرويج ودانمارك — بنحو ثمانية عشر قرناً ، وقبل أن يصل خرستوف كولومب إلى بعض جزائرها بنحو عشرين قرناً .

ما تبغيه من قوة ونفوذ وسلطان !

ولم تلبث أن اصطدمت بروما ، وكانت قد شعرت بقوتها ، وبدأت بينهما الحروب البونيقية ، التي ذهبت بتفصيل أخبارها كتب التاريخ ، تلك الحروب التي خلدت قائد القرطاجنيين العظيم هنبعل (هينبال) والتي انتهت بالقضاء على إمبراطوريتهم العتيدة ، وتدمير حاضرتها قرطاجنة ، عروس البحر المتوسط آنئذ ، وهلاك أهلها الأمجاد الذين فضلوا الموت حرقاً[١] على التسليم للأعداء ، وضربوا بذلك المثل الأعلى في العزة والإباء والشمم !

ويرجع المؤرخون أسباب هزيمة القرطاجنين ، على الرغم مما أبدوه من الفداء[٢] والبسالة النادرة في القتال ، وتفوق في القيادة ، إلى خطأ سياستهم العتيدة في استمرارهم غرباء عن أفريقية والأفريقيين ، فلم يجدوا فيهم أصدقاء يشدون أزرهم ، ويحمون ظهرهم ، عند ما اشتبكوا مع عدو قوى ، لا بل على النقيض من ذلك ، وجدوا منهم أعداء ينتهزون الفرص للثورة ضدهم ، وينضمون إلى أعدائهم : فلقد كان انضمام فرسان البربر إلى الرومان سبباً هاماً في انهزام جيشهم في الموقعة الفاصلة بجامة !

---

(١) لقد أضرموا النار في مدينتهم الحصينة الجميلة عندما أيقنوا أنهم خسروا المعركة ، وفضلوا الموت حرقاً على ذل الأسر !

(٢) قيل إن نساءهم قصصن شعورهن وفتلنها حبالا لاستخدامها في الشئون الحربية .



القرطاجنيون يحرقون قرطاجنة ، مفضلين الموت حرقاً على ذل الأسر

٦

استولى الرومان على إمبراطورية القرطاجنين (سنة ١٤٦ ق . م) وأعادوا بناء قرطاجنة على أطلالها ، واتخذوها مقرًّا لحكامهم !

ولم يلبث أن هاجر بعض الرومان ، وبخاصة قدامى الجنود إلى المستعمرة الجديدة التى أسموها أفريكا ، فأقطعوا الأراضى الخصيبة لزراعتها ، وقدمت لهم مساعدات مالية ، وحفرت فى أرضهم الآبار العميقة ومدوا بمياه العيون البعيدة، ومياه الأمطار والسيول المخزونة بوساطة قنوات، وسرعان ما قامت القرى والمدن الرومانية ، ومدت بينها الطرق الجيدة ، وشيدت فيها المعابد والملاعب والحمامات والمسارح ، لينعم بها المستعمرون ويرفهون بها عن أنفسهم ! وتلك كانت شنشنة الرومان أينما حلوا !

ولقد اتبع الرومان مع البربر سياسة غير سياسة القرطاجنيين ، فعاملوهم بالحسنى ، ولم يعلوا عليهم علو القرطاجنيين ، فأقبل البربر على اعتناق دينهم ، وسارعوا إلى التشبه بهم فى الملبس والسلوك والعادات ، ولم يمض زمن طويل حتى اندمجوا فيهم اندماجاً كلياً ! ولم يفرق ولاة الأمور الرومانيين بين البربر والرومان فى تولى الوظائف العامة[1] ولكن لأمر ما شذت بعض القبائل البربرية عما أجمع عليه أغلبهم ، وأبو الخضوع

(١) لقد صار أحد البربر إمبراطوراً للرومان جميعاً .

لسلطان الرومان ، ولاذوا بالجبال واعتصموا بها فكانوا مثاراً للقلاقل ، وعاملا من عوامل ضعف السلطة الرومانية فى « أفريكا » .

ولقد انتهز أحد الحكام الرومان اضطراب الأحوال فى الإمبراطورية فاستقل « بأفريكا » .

ولما همت روما بإرسال حملة لتأديبه ، دفعه خوفه إلى أن يستنجد بالوندال[1] ، ظاناً لخرقه وفساد تدبيره أنهم يسارعون إلى نصرته ثم يرجعون إلى بلادهم عندما يتم له النصر ! ولكن خاب فأله ، فقد جاءه جنسريق ملك الوندال فى جيش لجب واستولى على قرطاجنة ، وفر الحاكم الخائن المخدوع يعض كفيه ندماً !

ولم يكتف الوندال بأفريكا ولكنهم وسعوا ملكهم جنوباً ، وعاملوا البربر بالرفق واللين فمالوا إليهم وانضووا تحت لوائهم ، وانضموا زرافات إلى جيوشهم المقاتلة ، وأعد الوندال أساطيل استولت على كثير من جزائر البحر المتوسط ، وغزت روما فى عقر دارها !

ودام ملك الوندال فى شمالى أفريقية ما دامت صفاتهم الحربية وأخلاقهم المتينة القوية ! ولكنهم سرعان ما أبطرهم الغلب والسلطان ، فانحطوا إلى درك الملذات والشهوات ، وفقدوا بذلك صفاتهم وأخلاقهم القويمة ، فانتهز قبائل بربر الجنوب فرصتهم وأعلنوا استقلالهم ، ولم يلبث

---

(١) الوندال من القبائل الجرمانية التى هاجرت من شمالى أوربا الوسطى إلى إسبانيا واستقروا فى جنوبيها الشرقى ، وسميت أندلوسيا (الأندلس) باسمهم .

الوندال أنفسهم أن تنازعوا ففشلوا ، وذهبت ريحهم باستيلاء الروم الشرقيين أو البيزنطيين على أفريكا وطردهم منها !

ولم يترسم البيزنطيون خطا الرومان فى سياستهم للبربر بمعاملتهم بالحسنى ، ولكنهم على النقيض لم يراعوا لهم حقوقاً ، واستعلوا عليهم ، وعاملوها معاملة خشنة قاسية ، وأرهقوهم بالضرائب والإوتاوات الفادحة ، فانفضوا من حولهم ، وتربصوا بهم الدوائر !

وَوَدّوا لو تدول دولتهم !

ودالت دولتهم على يد العرب المسلمين !

٧

ظهر الإسلام فى جزيرة العرب ، وانبعثت منها دعوته : ديموقراطية ، حكيمة ، متواضعة ، فى زمن العنجهية والأرستقراطية المتعالية ، معلمة ، مهذبة ، فى عصر ساد فيه الجهال واستطالوا ، مبصرة فى عهد عميت فيه العيون والقلوب عن الحق والعدل والإحسان ، هادية إلى الرشد ، فى وقت تاه الناس فى أثنائه ، فى غياهب الغى والضلال ، عطوفة فى إبان وأد فيه بعض الناس فلذات أكبادهم !

ولقد كان العرب دعاة الإسلام ، أول الأمر ، لأنه ظهر أول ما ظهر فى بلادهم ، وعلى يد نبى كريم من أنفسهم !

ولقد كانوا قبل إسلامهم أمة مستضعفة[١]، لتفكك عراهم وانقسامهم قبائل، وعشائر، وبطوناً، لا يخضعون لسلطان عام ينظم شئونهم، ويأخذ حق ضعيفهم من قويهم، ويدافع عنهم، ويذب عن حياضهم، وكانت لذلك تقوم الحروب بينهم لأتفه الأسباب! وكانوا نهباً مقسما بين الدول القوية المحيطة بهم، فدانت لخم وجذام وشيبان وبطون من ربيعة فى العراق للفرس. وخضعت غسان فى الشام للروم، واستولى الحبشان، ومن بعدهم الفرس على اليمن الخضراء.

وكان العربى بفطرته قويًّا متيناً شجاعاً مقداماً صبوراً، ولكن كانت آفة العرب انقسام العرب وتناكرهم، كما قدمنا، وما أبلغ ما وصفهم به الرافعى حيث يقول:

« أى قوم كان هؤلاء الجفاة، وهم لم يستصلحوا أنفسهم إلا بما يفسد جماعتهم، ولم يأبوا أن يراموا لذل غيرهم، إلاّ ليضرب بعضهم الذلة على بعض، ولم يتخذوا السيف ناباً إلا ليأكلهم، ولا الحرب ضرْساً إلا لتمضغهمْ، وكانوا أهل جزيرة واحدة، وكأنهم فى تناكرهم أهل الأرض

---

(١) وصفهم الطبرى فى تفسير قوله تعالى: « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا، وأشقاه عيشاً، وأبينه ضلالة، وأعراه جلوداً، وأجوعه بطوناً، معكوبين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم. لا والله ما فى بلادهم يومئذ شىء يحسدون عليه... والله ما نعلم قبيلا يومئذ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظاً وأرق فيها شأناً منهم، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام فورثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد ووسع لكم به الرزق، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس!!

كلها من قاصية إلى قاصية »[١] .

فلما اتحدوا لأول مرة تحت لواء الإسلام ، ظهرت صفاتهم الفطرية المجيدة ، وشعروا بالعزة والقوة والمنعة ، فخرجوا من جزيرتهم بدينهم الجديد كسيول جزيرتهم الجارفة ، منحدرين شمالاً ، ثم شرقاً وغرباً ، « يرفعون على كل مذلة صولة ، ويخيطوا جوانب العالم الممزق بإبر من الأسنة ، وراءها خيوط من الأعنة ، حتى أصبح تاريخ الأرض عربيًّا ، وصار بعد الذلة والمسكنة أبيًّا ، واستوثق من الأمر ما لم ترْو الأيام مثل خبره لغير هؤلاء العرب ، حتى كأنما زويت لهم جوانب الأرض ، وكأنما كانوا حاسبين يمسحونها ، لا غزاة يفتحونها ، فلا يبتدئ السيف حساب جهة من جهاتها حتى تراه قد بلغ بالتحقيق آخره ، ولا يكاد يشير إلى قطر من أقطارها ، إلا أراك كيف تدور عليه الدائرة ، وإن هذا الأمر لحقيق أن تذهب في تعليله نفوس الحكماء ، في ألوان من المعاني متشابه وغير متشابه ، فإنما هو أمر إلهي ، كيفما أدرته ، رأيت في جانبه الذي يليك ضوءاً كضوء الصواعق ، وحركة كحركة الزلازل ، وقوة كالتي تتسلط بها السماء على الأرض »[٢] .

نفذ العرب المسلمون إلى أفريقية ، بعد أن استولوا على الشام وجعلوها مرتكزاً لهم ، مخترقين برزخ السويس ، واستولوا على شمالي أفريقية في سهولة

(١ ، ٢) مصطفى صادق الرافعي ، من كتاب صور إسلامية .

ويسر وحسن استقبال من السكان فى بعض أجزائه كمصر ، وبعد قتال مرير واستسلام وانتقاض دام سبعين عاماً أو يزيد ، فى بعض أجزائه الأخرى كتونس[1] (أفريكا) ؛ وأدالوا دولة الروم الشرقيين فيه ، تلك الدولة التى

---

(١) لقد ثار البربر تحت إمرة كسيلة وهزموا العرب هزيمة نكراء فى موقعة قتل فيها عقبة بن نافع قائدهم .

وثاروا أيضاً تحت قيادة الكاهنة ، وطاردوا العرب إلى برقة ! ولقد وسوس إلى الكاهنة شيطانها فخطبت قومها وقالت : « إنما يطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من فضة وذهب : ونحن نريد المزارع والمراعى ، فالرأى أن نخرب هذه المدن والحصون ، ونقطع أطماع العرب منها » . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « كانت المدن والضياع من طرابلس إلى طنجة ظلا واحداً ، فخربت الكاهنة ديار المغرب ، وجاست بالفساد خلاله ، فشق على البربر واستأمنوا إلى حسان (قائد العرب المهزوم) فأمنهم . . . وهذا يعنى انقسام البربر على أنفسهم ، الأمر الذى سهل على العرب إخضاعهم » الجغرافية التاريخية الإسلامية للأستاذ الكبير محمد أحمد حسونه :

ولا نعرف السبب فى غلبة اسم الكاهنة على هذه الوطنية المقاتلة : ولقد ذهب المؤرخون فى سبب ذلك مذاهب شتى ، ويغلب على الظن أن العرب هم الذين أطلقوا عليها ذلك الاسم بعد قتلها ومعرفة قصتها التى نجملها فيما يلى :

لقد كان اسمها داهية ، وكانت زوجة لرئيس قبيلة جراوة البربرية ، التى كانت تقيم فى جبال أوراس الحصينة وقد كان لها منه ابنان ، ولما حضرته الوفاة ، أوصى لابنيه وكانا غلامين صغيرين برياسة القبيلة من بعده ، على أن تكون زوجته داهية وصية عليهما ، لما يعرف فيها من الحزم والعزم وقوة الشكيمة والبصر بالأمور .

وحفظت داهية بدهائها وقوة شخصيتها تراث أبيهما .

وجاء جيش المسلمين تحت قيادة حسان بن النعمان الغسانى لغزو تونس ، واستولى على كثير من بقاعها ، ولما اقترب من جبال أوراس ، انحدرت إليه داهية من حصون جبالها على رأس جيش لجب ، انحدار السيل الجارف ، فاكتسحت جيش حسان ، فتقهقر إلى برقة تاركاً بعض أصحابه أسرى فى يدها !

كلها من قاصية إلى قاصية »[١] .

فلما اتحدوا لأول مرة تحت لواء الإسلام ، ظهرت صفاتهم الفطرية المجيدة ، وشعروا بالعزة والقوة والمنعة ، فخرجوا من جزيرتهم بدينهم الجديد كسيول جزيرتهم الجارفة ، منحدرين شمالاً ، ثم شرقاً وغرباً ، « يرفعون على كل مذلة صولة ، ويخيطوا جوانب العالم الممزق بإبر من الأسنة ، وراءها خيوط من الأعنة ، حتى أصبح تاريخ الأرض عربيًّا ، وصار بعد الذلة والمسكنة أبيًّا ، واستوثق من الأمر ما لم ترْو الأيام مثل خبره لغير هؤلاء العرب ، حتى كأنما زويت لهم جوانب الأرض ، وكأنما كانوا حاسبين يمسحونها ، لا غزاة يفتحونها ، فلا يبتدئ السيف حساب جهة من جهاتها حتى تراه قد بلغ بالتحقيق آخره ، ولا يكاد يشير إلى قطر من أقطارها ، إلا أراك كيف تدور عليه الدائرة ، وإن هذا الأمر لحقيق أن تذهب في تعليله نفوس الحكماء ، في ألوان من المعاني متشابه وغير متشابه ، فإنما هو أمر إلهى ، كيفما أدرته ، رأيت في جانبه الذى يليك ضوءاً كضوء الصواعق ، وحركة كحركة الزلازل ، وقوة كالتي تتسلط بها السماء على الأرض »[٢] .

نفذ العرب المسلمون إلى أفريقية ، بعد أن استولوا على الشام وجعلوها مرتكزاً لهم ، مخترقين برزخ السويس ، واستولوا على شمالى أفريقية فى سهولة

(١ ، ٢) مصطفى صادق الرافعي ، من كتاب صور إسلامية .

ويسر وحسن استقبال من السكان فى بعض أجزائه كمصر ، وبعد قتال مرير واستسلام وانتقاض دام سبعين عاماً أو يزيد، فى بعض أجزائه الأخرى كتونس[1] (أفريكا) ؛ وأدالوا دولة الروم الشرقيين فيه ، تلك الدولة التى

(١) لقد ثار البربر تحت إمرة كسيلة وهزموا العرب هزيمة نكراء فى موقعة قتل فيها عقبة بن نافع قائدهم .

وثاروا أيضاً تحت قيادة الكاهنة ، وطاردوا العرب إلى برقة ! ولقد وسوس إلى الكاهنة شيطانها فخطبت قومها وقالت : « إنما يطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من فضة وذهب : ونحن نريد المزارع والمراعى ، فالرأى أن نخرب هذه المدن والحصون ، ونقطع أطماع العرب منها » . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « كانت المدن والضياع من طرابلس إلى طنجة ظلا واحداً ، فخربت الكاهنة ديار المغرب ، وجاست بالفساد خلاله ، فشق على البربر واستأمنوا إلى حسان (قائد العرب المهزوم) فأمنهم . . . وهذا يعنى انقسام البربر على أنفسهم ، الأمر الذى سهل على العرب إخضاعهم » الجغرافية التاريخية الإسلامية للأستاذ الكبير محمد أحمد حسونه :

ولا نعرف السبب فى غلبة اسم الكاهنة على هذه الوطنية المقاتلة : ولقد ذهب المؤرخون فى سبب ذلك مذاهب شتى ، ويغلب على الظن أن العرب هم الذين أطلقوا عليها ذلك الاسم بعد قتلها ومعرفة قصتها التى نجملها فيما يلى :

لقد كان اسمها داهية ، وكانت زوجة لرئيس قبيلة جراوة البربرية ، التى كانت تقيم فى جبال أوراس الحصينة وقد كان لها منه ابنان ، ولما حضرته الوفاة ، أوصى لابنيه وكانا غلامين صغيرين برياسة القبيلة من بعده ، على أن تكون زوجته داهية وصية عليهما ، لما يعرف فيها من الحزم والعزم وقوة الشكيمة والبصر بالأمور .

وحفظت داهية بدهائها وقوة شخصيتها تراث أبيهما .

وجاء جيش المسلمين تحت قيادة حسان بن النعمان الغسانى لغزو تونس ، واستولى على كثير من بقاعها ، ولما اقترب من جبال أوراس ، انحدرت إليه داهية من حصون جبالها على رأس جيش لجب ، انحدار السيل الجارف ، فاكتسحت جيش حسان ، فتقهقر إلى برقة تاركاً بعض أصحابه أسرى فى يدها !

لقى منها سكانه جميعاً من الاضطهاد الدينى والظلم والعسف والجور ما

ومن الغريب أنها أطلقت أولئك الأسرى ، من غير مفاوضة ، أو وعد بالفداء، واحتفظت لأمر فى نفسها ، بواحد منهم فقط ، وكان اسمه يزيد بن خالد .

وجاءت داهية بطعام ، وطلبت من يزيد وابنيها أن يأكلوا منه فأكلوا ، وبذلك ارتبطوا برباط أخوة ، حسب عرف قبيلة جراوة ، لا تقل عن إخوة الدم متانة وقوة !

وجاء لحسان المدد ، فعزم على إعادة الكرة على داهية ، فأرسل إلى يزيد بن خالد ، فى الخفاء رسولا ، يستقصى أخبارها ، فاستجاب يزيد ، وكتب إليه كتاباً مفصلا ، ووضعه فى خبز وأعطاه للرسول زاداً ، فما كاد الرسول يغيب عن الأنظار حتى خرجت داهية ، ناشرة شعورها تولول وتقول : « يا بنى هلاككم فيما يأكله الناس » !

وجاء يزيد من حسان رسول آخر ، فكتب له كتاباً ، فأخفاه الرسول فى قربوس سرجه ، وانفلت إلى جيش المسلمين ، فخرجت داهية ناشرة شعرها ، تردد قولها : « يا بنى إن هلاككم فى شىء من نبات الأرض » !

وسار حسان بجيشه إليها ، ولما قارب ديارها ، خرجت ناشرة شعرها ، فهرع الناس إليها ، فصاحت بهم : يا بنى انظروا ماذا ترون فى السماء ؟

قالوا : « نرى شيئاً من سحاب أحمر » .

قالت : لا والهى ! ما هى إلا زهج خيل العرب قد أقبلت عليكم « ثم نادت يزيد بن خالد قائلة له : إنما تبنيتك لمثل هذا اليوم ، فأوصيك بأخويك خيراً ، فانطلق بهما إلى قومك وخذ لهما أماناً » . .

وأعدت جيشها وسارت للقاء حسان ، وانهزم جيشها ، وفرت بصنمها الذى كانت تعبده من دون الله .

وعرفت داهية بكهانتها بأنه قد جاء أجلها ، وأخبرت بذلك يزيد ، فقال لها :

« فإن كان الأمر كما تزعمين فارحلى من البلد » .

فقالت له : « كيف وأنا ملكة ، ومن العار أن تفر الملوك ، فإذا فررت قلدت قومى عاراً لا يمحى إلى آخر الدهر » .

وقد صدقت كهانة داهية إذ تعقبها حسان هى وفلول جيشها ، ودارت معركة حمى وطيسها =

توجعوا له ، وكره بعضهم الحياة معه .

وعلى الرغم من أن البربر ثاروا ضد العرب مرات فإنهم سكنوا إليهم آخر الأمر لما لقوا منهم من التسامح والمساواة ، والمعاملة الطيبة ، والعدل واحترام لمعتقداتهم ومقدساتهم[١] ، وما لبثوا أن ارتضوا الإسلام ديناً ، وسارعوا إلى تعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم واندمج العنصران : البربر والعرب وأصبحا أمة إسلامية واحدة[٢] ، اشترك أبناؤهما ، على قدم

=وخرت فى أثنائها داهية صريعة ، وقد جادت بنفسها دفاعاً عن وطنها الغالى .

هذه قصة داهية الكاهنة !

فإن صدقت كانت من أروع قصص البطولة والفداء !

(١) كتب هربرت فيفيان فى كتابه تونس : « لقد جاء العرب بأكمل تقاليد التسامح والفروسية والشهامة ، . . . وأمجد بساطة عرفها التاريخ ، فبعد ظلم روما الشنيع ، وفظاظة الونْدال ، وفساد البيزنطيين ، أشرقت شمسهم وضاءة فقشعت فظائع وأهوال ليل طويل ظلامه دامس » .

(٢) لقد وصف مؤرخ فرنسى هذا الحدث التاريخى العظيم قال : « هذه نتيجة تستحق الإعجاب ، إذ أنه قلما يحدثنا التاريخ عن الاستعمار على وجه الكرة الأرضية وفق إلى مثل هذا النجاح » . ويقول مؤرخ آخر من غير المسلمين : « حقاً إن تأثير الفاتحين الأقدمين (يعنى للمغرب) كان مقصوراً على النطاق الضيق الخصيب المجاور للساحل ، وكانت النتيجة الحتمية لهذا أن سكان هذا النطاق وحدهم اعتنقوا المسيحية أيام الرومان والبيزنطيين ، أما فيما عدا ذلك ، فإن السكان لم يتأثروا تأثراً عميقاً بالحضارة الرومانية ، ذلك لأن الرومان والبيزنطيين كانوا يعيشون غالباً فى المدن الساحلية . أما صبغ جموع البربر بصبغة عربية وتحويلهم إلى عقيدة الإسلام ، وتجنيد جند منهم يتسابقون فى مضمار الفتوح ، فتلك معجزة الإسلام التى مكنت له من إنشاء وطن جديد ، استعان به فى ارتقاء سلم الزعامة العالمية » (الجغرافية التاريخية للإسلام) .

المساواة فى الفتوحات الإسلامية الجديدة[١] .

وأسس العرب المسلمون فى تونس[٢] مدينة القيروان لتكون مرتكزاً لهم ومعقلا يلوذون به إذا ما ضغطة حال اضطرتهم ، ومركزاً لتجمع جيوشهم يثبون منه إلى فتح جديد !

ولقد كان موقع القيروان موقعاً استراتيجياً بديعاً دل على عبقرية وفراسة من اختاره . فهى فى بقعة زراعية تكفى غلاتها لتموين سكانها وحاميتها إذا هددوا بحصار ، وبمنأى عن الساحل لتكون فى مأمن من أساطيل أعداء ما وراء البحر المتوسط ، وفى مواجهة جبال أوراس ، معقل البربر الحصين الذين كانوا ينحدرون من ثنياتها انحدار السيول العارمة ، فيباغتون العرب الفاتحين ، ويكبدونهم خسائر فادحة ، وهى على الطريق القادم من الشرق ، يأتيها عليها المدد فى سرعة ويسر ، كما يسهل على حامياتها الانسحاب إلى برقة عند الاضطرار !

ولقد وفد إلى القيروان وإلى غيرها من جهات تونس كثير من الدعاة

---

(١) لقد كان طارق بن زياد القائد المظفر وفاتح الأندلس بربرياً .

(٢) اختط عقبة بن نافع مدينة القيروان ، وبنى بها المسجد الجامع ، وبنى للناس مساكنهم ومساجدهم ، وكان دورها ثلاثة آلاف وستمائة باع ، وكملت فى خمس سنين . وفى القرن الرابع كانت مصرا بهياً عظيماً ، قد جمع أضداد الفواكه والسهل والجبل مع علم كثير لا ترى أرفق من أهلها . . . فهى معجزة المغرب ، ومركز السلطان ، وأحد الأركان ، أرفق من نيسابور ، وأكبر من دمشق ، وأجل من أصبهان ، وجامعها أكبر من جامع ابن طولون بأعمدة من الرخام ، ومفروش بالرخام ! (ابن خلدون) .

والفقهاء ليدعوا السكان إلى الإسلام ، ويفقهون المسلمين المحدثين فى أمر دينهم ، كما هاجر إليها قبائل وبطون عربية ، واتخذوها مقرًّا لهم ومقاماً ، كما استقدم إلى تونس ألف من صناع مصر الحاذقين فى صناعة السفن لإنشاء مصنع لبناء السفن على مقربة من قرطاجنة ، فى المكان المعروف حتى اليوم بدار الصناعة !

جاء أولئك الصناع المصريون المهرة بأسرهم ، واتخذوا تونس لهم وطناً ثانياً !

واستبدل المسلمون بميناء قرطاجنة الواقعة على البحر المتوسط مباشرة ، وكانت لذلك معرضة لهجمات الروم ، استبدلوا بها بلدة صغيرة قديمة واقعة على برزخ جبلى ، يفصل بين سبخة وبحيرة قليلة الغور ، يفصلها عن البحر برزخ ، ولأجل أن يوصلوا البحيرة بالبحر حفروا فى البرزخ القائم بينهما قناة ضيقة ، طولها عشرة كيلومترات ! وبذلك أصبحت تونس ، وهى اسم تلك البلدة الصغيرة القديمة ميناء آمناً يطمئن المسلمون إلى سكناه !

وإن لهذا الميناء الجديد المزايا التى كانت لقرطاجنة ، والتى تقدم تعديدها !

وسرعان ما أصبح للمسلمين أسطول حربى قوى تمكنوا به من الاستيلاء على صقلية ومالطة وعلى سردينيا وكورسيكا وميورقة ومنورقة وقبرص ، وغزوا

بعض أقطار جنوبى أوربة[1] وقامت ببعض هذه الجزائر دول إسلامية ، غنت زماناً عزيزة منيعة مرعية الجانب ، وأصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية . وراجت التجارة فى هذا الجزء الغربى من الدولة الإسلامية رواجاً عظيما فى البر والبحر ، وأعقب ذلك نهضة عامة شملت الزراعة والصناعة والرى والعمارة ، وازدهار للأدب ، وتقدم للعلم ، وازدياد فى الحركة الفكرية !

٨

عود على بدء

ظلت تونس بعد الفتح العربى يحكمها ولاة من قبل خلفاء دمشق وبغداد حين من الدهر (من سنة ٧٨ هـ إلى سنة ١٨٤ هـ) ثم جنح أهلها للاستقلال ، فقامت فيها دولة بنى الأغلب البربرية (١٨٤ هـ — ٢٩٦ هـ)

---

(١) وفى ذلك يقول ابن خلدون : وكان المسلمون قد غلبوا على بحر الروم (البحر المتوسط) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل ميورقة ومنورقة ، وسردانية وصقلية ومالطة وقبرص . والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على الأكثر من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجيز البحر فى أساطيلهم من صقلية إلى البر الكبير المقابل له . . . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الفرنجة والصقالبة لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد بفريسته !

مستقلة استقلالا ذاتيًّا مع الاعتراف بدولة الخلافة اسميًّا، واستمرار الخطبة للخليفة !

وفى أواخر الدولة الأغلبية انتشرت فى المغرب دعوة العبيديين أو الفاطميين، فأصاخ لها البربر وتحمسوا لها، وانضووا تحت لوائها، وأدالوا دولة بنى الأغلب، ومكنوا بذلك لقيام دولة الفاطميين ! واتسع ملكهم، وترامت أطرافه، وانتشر مذهب الشيعة بين الناس، ولا بدع فالناس على دين ملوكهم !

ولما استتب الأمر للفاطميين فى بلاد المغرب جميعاً، زحف جيشهم إلى الشرق، واستولى على مصر، وأسس قائدهم المظفر جوهر الصقلى مدينة القاهرة، فانتقل إليها الفاطميون، واتخذوها عاصمة لهم، وتبعهم إليها رجال الدولة ودعاتها وجندها، فخلا جو بلاد المغرب أو كاد من الشيعة، فتنفس أهل السنة الصعداء، وشعروا بزوال كابوس كان جاثماً على صدورهم، فثاروا على من بقى منهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

وانحاز ابن باديس، وكان قد استخلفه الفاطميون على المغرب، إلى الشعب الثائر، لأنه كان سنيًّا متنطعاً يكره الشيعة والشيعيين، وتنكر للفاطميين، وأبطل الخطبة لهم، وأمر بأن يخطب للخليفة العباسى !

وصل الخبر إلى الخليفة الفاطمى، وشاور وزراءه، فأشاروا عليه [1] بأن يرمى ابن باديس بقبائل بنى هلال وسليم ورياح وزغبة، وكانوا قد

(١) صاحب الرأى فى إرسال بنى هلال إلى تونس هو الوزير اليازورى !

هاجروا من بلاد العرب إلى مصر[١] ، وكان الخليفة الفاطمى قد ضاق بهم ذرعاً لعبثهم وإخلالهم بالأمن[٢] ، فيضرب بذلك عصفورين بحجر واحد ! فاستصوب رأيهم ، ونزل عليه ، فأرسل إلى هذه القبائل ، واستمالهم إليه ، ووصلهم بالمال ، وأمدهم بالإبل والذخيرة ، وخرجوا من مصر وكان عددهم أربعمائة ألف أو يزيدون، وساروا نحو الغرب كالجراد المنتشر يأكل كل نابتة خضراء ، وانتهوا إلى تونس ، واكتسحوا أمامهم جيش ابن باديس وانتشروا فى البلاد ، وطغوا فيها وأكثروا الفساد والخراب[٣] فى شتى نواحيها ، وأشاعوا الذعر بين الناس .

ولقد كان قدوم هذه القبائل إلى تونس منشأ قصة أبى زيد الهلالى ، تلك القصة الشعبية الرائعة ، التى لا يزال الشعراء ينشدونها بمصاحبة الربابة والقصاص يقصونها ، ويستمع إليها آلاف الناس فى المقاهى والموالد والأسمار فى شتى ربوع الوطن العربى ! كما كان لقدومهم إليها نتائج واسعة المدى على سكانها[٤] ، فقد زادت بهم نسبة العنصر العربى ،

(١) جاء بنو هلال إلى مصر فى عهد الخليفة العباسى أبى العباس السفاح الذى أقطعهم أرض بلبيس بمديرية الشرقية مكافأة لهم على انضمامهم إلى العباسيين ضد الأمويين !

(٢) وقيل لأن القحط كان قد اشتد فى مصر فى تلك السنة .

(٣) فقد أصبحت القيروان ومدن أفريقية خراباً تلتهمها النيران وتحصد أهلها سيوف السفاحين من الغزاة ، وفجع العلماء فى أمنهم واستقرارهم ، فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم من هذه الفتنة : (الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية) للدكتور حسن أحمد محمود ، ص١٦٢ .

(٤) يقول ابن خلدون فى مقدمته : . . . لما جاء إليها بنو هلال وبنو سليم ، منذ أول المائة الخامسة ، وتمرسوا بها ، ... لحق بها ، وعادت بسائطه خراباً كلها ، بعد أن=

ونقص عدد البربر فيها ، لاضطرار بعض القبائل البربرية تحت ضغطهم إلى ترك أوطانهم والهجرة إلى واحات الصحراء الكبرى والوديان الخصيبة لبعض هضابها ، ومنها سار فريق منهم إلى شمالى السودان الغربى ، واختلطوا بأهله وصاهروهم ، ونشروا الدين الإسلامى واللغة العربية بينهم ! وكان لهذا كله أثر كبير فى سكانه من حيث اللون والملامح والعادات والتقاليد والملبس والمسكن وحياة الناس بوجه عام ! كما كان له الفضل الأول فى قيام دول إسلامية قوية فيه[1] !

ولقد تلا وصول بنى هلال فترة اضطرب فى أثنائها حبل الأمور فى

= كان ما بين السودان والبحر الرومى كلها عمراناً ، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداشر (المدن الصغيرة فى لغة أهل المغرب) .

(١) لم يكن تأثير بنى هلال قاصراً على سكان تونس والصحراء وشمالى السودان الغربى ، ولكنه جاوزه إلى سكان أفريقية كلها شمالى خط الاستواء ، ولم يقف ذلك التأثير عند حد تزحزح عام ، وتحركات شاملة للجماعات والعناصر المختلفة فى هذا القسم الكبير من القارة ، واستقرارهم فى بقاع جديدة منه ، واتصالهم بجيرانهم الجدد اتصالا وثيقاً فى لحماتهم الجنسية ولغاتهم ومعتقداتهم وسلوكهم العام ، وأحدث تغييراً – قل أو كثر – فى ملابسهم وطراز مساكنهم .

ولقد نشأ عن اتصال الحاميين الرعاة بالزنوج المزارعين وتزاوجهم عناصر جنسية جديدة كالفولانى والفوربا والحوصة والماندنج .

ولقد اضطرت بعض القبائل الزنجية إلى الرحيل من أوطانهم ، وآووا إلى الغابات والهضاب العالية واستبدلوا حرفة الصيد أو الجمع والالتقاط مضطرين بحرفة الزراعة التى أصبحت فى بيئتهم الجديدة مستحيلة .

تونس ، وسادت الفوضى فى أنحائها[١] فانتهزها الأوربيون الذين كانوا يتربصون بها الدوائر ، فانقضوا على جزائر البليار وسردينية وصقلية واستولوا عليها ، وغزوا السواحل التونسية بأساطيلهم[٢] سنة ٥٤٣ هـ واستولوا على بعض ثغورها ، ونهبوا ما فى قصورها من ذخائر نفيسة .

ولكن لم يدم ذلك الكابوس الأوربى طويلا ، فقد جاء من المغرب الأقصى عبد المؤمن بن على الزناتى البربرى[٣] أمير الموحدين على رأس جيش لجب وطرد النورمانديين من البلاد[٤] ! وضمت بذلك تونس إلى

---

(١) «يرى بعض المؤرخين أن غارة الهلالية على تونس شديدة الشبه بغارات القبائل الجرمانية على الدولة الرومانية فى القرنين الخامس والسادس ، فقد قوض الهلاليون صرح الإمارة التونسية وأنشأوا إمارات عربية صغرى يقاتل بعضهم بعضاً ، وتحيل البلاد إلى أتون ملتهب من الاضطرابات والفوضى ! وكذلك فعلت القبائل الجرمانية بالإمبراطورية الرومانية » (الإسلام والثقافة العربية بأفريقية) للدكتور حسن أحمد محمود ص ١٦٢ .

(٢) لقد أتى على الأساطيل الإسلامية حين من الدهر سيطرت فيه على البحر المتوسط ، وأصبحت موضع خوف دوله الأوروبية وذعرهم ، ولكن تفرق كلمة المسلمين ، وفى الأندلس بخاصة ، وانتقال الأسطول الفاطمى إلى مصر أضعف قوتها فى غربيه ، حدث ذلك فى الحين الذى بدأت فيه معالم النهضة واتحاد الكلمة تلوح فى سماء أوربة ، وقويت أساطيلهم . نفس الكتاب ص ١٦٣ .

(٣) لقد عظم سلطان الموحدين فى عهده حتى شملت دولتهم برقة وتونس والجزائر والمغرب والأندلس .

(٤) يبدو أن نصارى تونس ويهودها انضموا إلى غزاة النورمانديين ضد مواطنيهم المسلمين ، فلما طرد الأمير عبد المؤمن بن على النورمانديين ، وعرف خيانتهم لوطنهم عاقبهم عقاباً شديداً ، فقتل بعضهم ، وأجبر بعضهم على اعتناق الإسلام ، وفرض ضريبة الرأس على من بقى منهم ولم يعتنق الإسلام ، ففر كثير منهم إلى إيطاليا وإسبانيا وألمانيا — انظر ابن الأثير والتيجانى .

دولة الموحدين !

وفى عهد عبد المؤمن بن على أصبحت مدينة تونس[1] لأول مرة عاصمة أفريكا (تونس) .

ولم تعمر دولة الموحدين فى أفريقية طويلا ، فقد دالت ، وخلفتها دولة

---

(١) لقد زار العبدرى الرحالة المشهور تونس سنة ٦٨٨ هـ ووصفها فى رحلته بقوله :

« مدينة تونس مطمح الآمال . . . ومحط الرحال ، من الغرب والشرق ، وملتقى الركاب والفلك ، وناظمة فضائل الدين فى سلك ، فإن شئت أصحرت فى موكب ، وإن شئت أبحرت فى مركب ، كأنها ملك والأرباض لها إكليل ، وأرجاؤها روضة باكرتها ريح بليل .

وهذه المدينة — كلأها الله — من المدن العجيبة الغريبة ، وهى فى غاية الاتساع ونهاية الإتقان ، والرخام كثير بها ، وأكثر أبواب ديارها معمول منه ، عضائد وعتباً ، وجل مبانيها من حجر منحوت محكم العمل ، ولها أبواب عديدة ، وعند كل باب منها ربض متسع على قدر البلد المستقل ، ولو اتفق أن يكون بها ماء جار لكانت معدومة النظير شرقاً وغرباً ، ولكن ماءها قليل وفى ديارها مصانع لماء المطر .

وأما الساقية المجلوبة من ناحية (زغوان) فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه إلا رشحاً يسيراً سرب إلى سقاية جامع الزيتونة يترشف منها فى أنابيب من رصاص ، ويستقى منها الغرباء ومن ليس فى بيته ماء .

وجامع الزيتونة من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقاً ، ودائره مسقف ، ووسطه فضاء قد نصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدر ، وشدت إليها حبال متينة فى حلق من حديد مثبتة فيها وفى السقوف شداً محكماً ، فإذا كان يوم الجمعة ونشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظلل جميع الفضاء (الصحن) ذلك دأبهم فيها حتى ينصرم فصل الصيف » .

(من رحلة العبدرى . سنة ٦٨٨ هـ) .

الحفصيين[1]

وطال عهد الحفصيين ، واتسع سلطانهم ، وذاعت شهرتهم حتى بايعهم أهل مكة بإمارة المسلمين ، ولعل مرد ذلك إلى ضعف دولتى الخلافة فى بغداد وفى الأندلس ! وفى عهدهم رقت البلاد وتقدمت حضارتها ، وأطمأنت حياة الناس فيها وعمتهم الرفاهية .

ولم يلبث الضعف أن أخذ سبيله إلى دولتهم شأنها فى ذلك شأن الدول جميعاً ، وعُرف منهم ذلك ، فهم العثمانيون[2] بهم فسلكوا جنبات الصواب ، واستنجدوا بالإسبانيين ، فخفوا إلى نجدتهم مبيتين لهم الغدر ، إذ ما كادوا يستولون على ثغور البلاد بمساعدة حكامها المخدوعين حتى كشفوا عن نواياهم وتنكروا لهم ، وقسوا فى معاملتهم ، ولقى سكان تونس من العسف والظلم والهون ما تندى له الجباه ، وتصفر منه الأنامل ، وتنفس الناس الصعداء عند ما جاء العثمانيون بجيش عظيم وأسطول قوى ، وطردوا الإسبانيين شر طرد ، وانقضى بطردهم عهد الحفصيين ، وبدأ عهد العثمانيين فى تونس (سنة ٩٨١ هـ) .

وفى عهد العثمانيين أخرج الإسبانيون مسلمى الأندلس من ديارهم بعد

---

(١) الحفصيون فرع من الموحدين ، وكان جدهم الذى ينتسبون إليه من خلصاء الأمير عبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين .

(٢) كان العثمانيون قد استولوا على الجزائر وجعلوها ولاية عثمانية .

عسف واضطهاد دام طويلا[1] . فوفد كثير منهم إلى تونس فأكرمت وفادتهم ، ووزعت عليهم الأراضى فعمروها ، وأنشأوا البساتين

(١) لقد استولوا على مدينة تونس « واستباحوها بالقتل والأسر والسبى حتى قيل إن عدد سكان تونس كان مائة وثمانين ألفا ، قتل منه الثلث ، وأسر الثلث ، ونجا الثلث ، ومن أفظع ما ارتكبه عساكر الإسبان أن هجموا على جامع الزيتونة ، وبددوا ما كان يوجد به من نفائس المخطوطات فى المكتبة(العبدلية) فأصبحت أثراً بعد عين . (تاريخ تونس لحسن حسين عبد الوهاب) .

لقد كانت وثيقة تسليم غرناطة تضمن احترام المسلمين فى دينهم وأملاكهم وحريتهم وأمنهم وسلامتهم والسماح بالهجرة لمن أراد الخروج إلى الديار الإسلامية . . . . ولكن تبعاً للتعصب الدينى والحقد الجنسى ، واستجابة لتحريض الكنيسة ، خصوصاً مساعى الكردينال « كيمناس » لدى الملكة إيزابلا ، نقضت شروط الأمان التى منحت للمسلمين ، فبدأت الدعوة إلى تنصيرهم . . . . جبراً وتحريم إقامة شعائرهم الدينية ، وإغلاق المساجد ، وعمد الكردينال كيمناس إلى الكتب الموجودة بغرناطة وأحرق منها مئات الآلاف ، ولم يبق منها إلا ثلثمائة كتاب فى الطب . . . . ثم صدر قانون بإكراههم على ترك زيهم واتخاذ الزى الإسبانى ، ومنعوا من الاغتسال ودخول الحمامات ، وحظر عليهم التكلم بالعربية ، كما أوجبوا عليهم استبدال أسماء إسبانية بأسمائهم العربية . . . . ثم حولت جميع المساجد إلى كنائس . . . . وتنصير من بقى على دينه من المسلمين ، أو أن يخرج من إسبانيا فى مدة معينة . وكانت الكنيسة تحرض على الفتك بهم وعدم الاغترار بادعائهم النصرانية . . . . ثم صدر أمر النفى والجلاء فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ (١٠١٧ هـ) وحشدت لهم السفن من مختلف الجهات فذهب البعض إلى فرنسا وإيطاليا (شرط الاستمرار على الكثلكة) وذهب البعض الآخر إلى مصر والآستانة ، ولكن الأغلبية الساحقة منهم نقلوا إلى المغرب العربى خصوصاً المملكة التونسية .

وكان عدد الذين أصابهم النفى والجلاء عظيماً جداً ، أوصله بعضهم إلى عدةملايين ، هلك منهم أثناء عملية النفى ما يفوق المائة ألف بين أسير وقتيل . وعلى هذه الصورة المرعبة انتهى

فيها ، وشيدوا القرى والمدن[١] فى شتى نواحيها ، وأدخلوا فى البلاد صناعات جديدة[٢] كانوا يزاولونها فى فردوسهم المفقود .

وإن عداء مسيحيي أوربة الجنوبية السافر للدول الإسلامية وتصريحهم بالشر ، وتضافرهم على الاستيلاء على جزائر البحر المتوسط التابعة لها ، وغزوهم لبعض سواحلها ، واقتحامهم لبعض ثغورها ، وقتلهم بعض سكانها ، وأسرهم لبعضهم الآخر ، ونهب ما فى مدنها المغزوة من نفائس وذخائر ، إن ذلك الاعتداء المبيت الملح أشعر مسلمى شمالى أفريقية بتهديد دائم للمال والأرواح ، ولما هو أغلى من المال والأرواح ، ولفتهم إلى سيف أوربة المصلت الذى لا يدرون متى يهوى على رقابهم ، فأتمروا ، وأجمعوا أمرهم على إعداد أساطيل بحرية مزودة بالرجال والعتاد

أمر المسلمين بالأندلس . وما جنت إسبانيا بعملها هذا ، على المسلمين فقط بل جنت على نفسها أيضاً أعظم جناية ، وفى ذلك يقول جوستاف ليبن . . . . ومما يرثى له أن حرمت إسبانيا عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية . . . . . وقد كان من نتائج تلك المظالم . . . . أن هبطت إسبانيا إلى أسفل دركات الانحطاط ، بعد أن بلغت فى أيام العرب قمة المجد ، وأن انهار كل ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب » (محمد العروسى المطوى : الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب) .

(١) « من المدن التى شيدوها سليمان وقرنبالية والجديدة وزغوان وطبرية ومجاز الباب وتستور وقلعة الأندلس ، وقد استوطن بعضهم مدينة تونس فى حارات عرفت بهم مثل حومة الأندلس ، وزقاق الأندلس » (تاريخ تونس لعبد الوهاب) .

(٢) « لقد أدخلوا صناعات الشاسية ، ونسج الحرير ، ونقش الرخام والجبس والجليز ، وتجليد الكتب وزخرفتها ، والخزف المطلى ، وأقاموا لها مصانع خاصة » (تاريخ تونس لحسن عبد الوهاب) .

والسلاح ، لحمايتهم والذود عنهم وعن ثغورهم وتجارتهم ، وتنتقم من المعتدين على بلادهم وعلى سفنهم التجارية كلما واتتهم الفرصة ، جزاء وفاقاً لما فعلوا بهم ! والبادى أظلم !

ولقد قوى عزائمهم على هذا الانتقام ، ودفعهم إلى الغلو فيه مهاجرو الأندلس الذين طردوا من بلادهم وهم ألوف ، بعد أن عذبوا عذاباً لم يعذبه أحد ، وانتهكت حرماتهم ، وهتكت أعراضهم ، وسلبت أموالهم ، ومشاهدتهم المستضعفين من أهلهم الذين لا يطيقون هجر أوطانهم والفرار بدينهم ؛ يقسرون على اعتناق المسيحية[1] !

لقد انضم أولئك الموتورون إلى الغزاة ، وقلوبهم تغلى حقداً ، وألسنتهم تمج صاباً وعلقماً ، فاستفرسوا وهاجموا السفن الأوربية ، واستولوا على ما فيها من بضائع ، وأسروا من فيها من تجار وسفار ، وغزوا السواحل

---

(١) يقول السيد محمد العروسى المطوى فى كتابه : « الحروب الصليبية فى الشرق والغرب » :

« فإن الكثير من المهاجرين الأندلسيين كانوا عند ما يستقر بهم الأمر فى المدن الأفريقية يعملون على الانتقام من الإسبان الذين أخرجوهم من ديارهم ، فيقومون بغارات منظمة على سواحل أقطار جنوبى أوربة وقد اكتسبت هذه الغارات صبغة الجهاد ، فكان يشاركهم فى هذا كثير من سكان السواحل الأفريقية ، فيركبون السفن ، وينزلون بالسواحل الإسبانية لإنقاذ إخوانهم من خطر الفناء والتنصير ، كما كانوا يغيرون على سفن النصارى من الإفرنج ، ويعودون بما فيها ومن فيها من غنائم وأسرى ، وتكونت بذلك قرصنة إسلامية ما كان يعرفها البحارة المسلمون فى الماضى وإنما دعت إليها فكرة الجهاد والانتقام من الإسبان وغيرهم من معتدى مسيحيى أوربة الجنوبية » .

والثغور الأوربية ، وأسروا كثيراً من نسائها وغلمانها ورجالها ، وعادوا بهم وباعوهم بثمن غال ، والناس فيهم راغبون ، ونفقت بذلك تجارة الرقيق الأبيض !

على أن الأتراك العثمانيين الذين جاءوا تونس ولاة أو جنداً أو موظفين أو غير ذلك ، وأقاموا فيها ، لم ينأوا بأنفسهم عن أهلها ، ويحتفظوا بشخصيتهم الأجنبية ، كما يفعل المستعمرون الغربيون عادة فى الأقطار التى يحتلونها ، بل سارعوا إلى الاختلاط بهم ، والاندماج فيهم كشأنهم فى جميع الأقطار الإسلامية التى ضموها إلى دولتهم — دولة الخلافة .

٩

— واستمر حكم الأتراك العثمانيين فى تونس بخيره وشره طويلا ، وقام فى أثنائه البيت الحسنى بأعباء الدولة ، وكانت علاقته بدولة الخلافة أشبه بعلاقة بيت محمد على بها ، وقام بعض باياته بإصلاحات واسعة النطاق فى جميع النواحى ، وأخذت تسير تونس فى عهدهم بخطا واسعة فى سبيل الرقى والتقدم إلى أن منيت بالاحتلال الفرنسى [١] .

احتلت فرنسا تونس ، كما احتلت بريطانيا مصر فى ظروف متشابهة وتذرعت كلتاهما باضطراب حبل الأمور فيهما ، وكان ذلك فى الحقيقة بسبب

---

(١) الدكتور الحبيب ثامر : (هذه تونس ص ٢٣).

الدسائس التى غزلت غزلها ، وحاكت نسجها أيديهما القذرة الأثيمة[١] (سنة ١٨٨١ م فى تونس ، وسنة ١٨٨٢ م فى مصر) .

وأرغمت تونس على عقد معاهدة مع فرنسا تخول لها احتلال المراكز التى تراها لازمة للمحافظة على النظام واستتباب الأمن فى البلاد ! وتشترط فى أحد بنودها أن يتولى سفراؤها ووزراؤها المفوضون وقناصلها فى الأقطار المختلفة تمثيل تونس ، ورعاية مصالح رعاياها فيها ، كما تحرم عليها فى بند آخر عدم إبرام أى عقد ذى صبغة عامة مع أية دولة أخرى دون الرجوع إليها والحصول على موافقتها .

ولم تقنع فرنسا بما اغتصبت من حقوق فأرغمت الوالى الشرعى وهو الباى فى سنة ١٨٨٣ م أى بعد سنتين من احتلالها البلاد على إمضاء اتفاقية تعرف باتفاقية المرسى ، وتنص أول مادة فيها على أن « حضرة الباى المعظم ، لما كان قصده أن يسهل للحكومة الفرنسية إتمام حمايتها ، تكفل بإجراء الإصلاحات الإدارية والعدلية والمالية، التى ترى الحكومة الفرنسية فائدة من إدخالها » .

وبهذا أصبحت السلطة الفرنسية الحاكمة بأمرها ؛ فلم تألو جهداً فى توجيه كل مرفق من مرافق البلاد نحو تحقيق مصلحة فرنسا ، وتنفيذ

---

(١) لقد دبرت فرنسا قتل عدد من العمال المالطيين والإيطاليين والإسبانيين الذين كانت تستخدمهم إدارة إحدى السكك الحديدية ، وتتهم رجال إحدى القبائل التونسية لقتلهم ، لتتخذ هذا الاتهام مبرراً للقيام باحتلال الأراضى التونسية .

أغراضها ، وجعلت مصلحة البلاد وأهلها دبر أذنها وتحت أقدامها ، فبدأت بانتزاع الأراضى الخصيبة من ملاكها الزراع التونسيين ، كما استولت على أراضى القبائل الكلية[١] وأراضى الأوقاف[٢] ، وأراضى الغابات[٣] وقامت بتوزيعها على المستعمرين الفرنسيين بأثمان زهيدة ، مقسطة على آجال طويلة .

وتوالت اعتداءات فرنسا على أملاك التونسيين وأموالهم ، لم ترع فى ذلك إلاً ولا ذمة ولا شريعة ، ولا عرفاً ، وأبهظت كواهلهم بالضرائب ، وجبتها بالعنف والقسوة والإعنات والتعذيب .

ولم تكتف باغتصاب ثروة البلاد الزراعية من أهلها ، فاغتصبت ثروتها المعدنية ومنحتها لشركات فرنسية ، كما وقفت فى سبيل تقدم الصناعة فيها ملتمسة المعاذير ، شأنها فى ذلك شأن بريطانيا فى مصر فى عهد الاحتلال البغيض، لتستولى على خاماتها ، ولتكون سوقاً لبضائعها ومنتجاتها الصناعية ، وعملت على القضاء على قوميتها العربية : فاستبدلت اللغة الفرنسية باللغة العربية فى المدارس والمصالح الحكومية والدواوين ،

---

(١) الأراضى الكلية هى الأراضى التى تمتلكها القبائل مشاعاً بين أفرادها ، وكانت تبلغ مساحتها أربعة ملايين هكتار ، أى ربع مساحة تونس كلها .

(٢) هى أوقاف المسلمين على المساجد والمدارس وأوجه الخير والبر الأخرى ، خاصة كانت أم عامة ، وكانت تبلغ مساحتها أربعة ملايين هكتار أى قدر مساحة الأراضى الكلية .

(٣) كانت تبلغ مساحة أراضى الغابات نحو مليون هكتار .

وبذلك قطعت الرباط الوثيق بين حاضرها وماضيها .

ولم تقف فرنسا عند هذا الحد من العدوان ، ولكنها أخذت ، وهى الدولة التى ادعى دعاة ثورتها الكبرى أنها موطن الحرية والإخاء والمساواة ، أخذت تحد من حريات التونسيين ، فكممت أفواههم ، وحددت مجارى أقلامهم[1] ، وفرقت بينهم وبين المستعمرين الفرنسيين ، لا بل لم تسو بينهم وبين الجاليات الأوربية الأخرى فى الحقوق والواجبات ، غير مقيمة فى ذلك وزناً للمبادئ والقيم الإنسانية : ومن أمثلة ذلك أنها جعلت الوظائف العالية ، ذات المرتبات الكبيرة ، والامتيازات الكثيرة ، وقفاً على الفرنسيين والمتفرنسين. على حين قصرت التونسيين أصحاب البلاد على الوظائف الصغيرة ذات المرتبات الضئيلة ، وأصبحت بذلك نسبة ما يتقاضاه الموظفون الفرنسيون نحو ٩٦ ٪ من مجموع ميزانية موظفى الحكومة التونسية .

وكانت خاتمة سيئاتها إغراء التونسيين بالتجنس بالجنسية الفرنسية حتى لا يجنحوا إلى الاستقلال ، وسلكت فى بلوغ ذلك سبلا كثيرة كأن تمنح للمتفرنسين امتيازات خاصة ، وتعطيهم منحاً محبوسة على

---

(١) وإليك إحدى حيثيات ميثاق المؤتمر الوطنى التونسى ، المنعقد فى تونس فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٤٦ م « وحيث إن التونسيين قد حرموا فى بلادهم من الحريات الأولية ، وهى حريات التفكير والنشر والقول والاجتماع والتنقل » .

الفرنسيين وحدهم[١] أو تشجعهم على الزواج من فرنسيات يعملن للوصول إلى هذه الغاية ، ومن المفارقات العجيبة أنها كانت لا تمنح هذه الامتيازات للأطفال الناتجين عن هذا الزواج المختلط إلا إذا سموا بأسماء فرنسية خالصة لا تمت إلى الأسماء الإسلامية العربية بصلة. ولعلها كانت ترمى إلى أن تنسيهم عروبتهم ودينهم .. وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فقدفتحت باب التجنيس على مصراعيه «فمنحت الجنسية الفرنسية للعاطلين الإنجليز (كذا) والروس البيض والإسبان الجمهوريين ، وحتى الإيطاليين [٢] فى العهد الأخير لإكثار عدد الرعايا الفرنسيين بالنسبة لعدد الأهالى التونسيين والقضاء بذلك على شخصية البلاد التونسية[١] .

ولم يقم الشعب التونسى الأبى طويلاً على الخسف والذل اللذين أرادتهما له فرنسا ، ولم يرض بالهوان والفقر اللذين رأى نفسه ينحدر إليهما

---

(١) « رأت تونس من كل ذلك ألواناً وألواناً . لا بل لا تزال رواسب من كل ذلك موجودة حتى اليوم ، تونس . . . قاسى شعبها الذل والفقر والجهل . . . أصبح الشعب فيها جائعاً عارياً يتسول قوته ، ثم يأوى إلى المغاور والكهوف يتخذ منها بيوتاً . . . كل هذا ليعيش الاستعمار ولتعيش طائفة الاستعمار » (من وجوه الاستراتيجية الاستعمارية تونس) .

(٢) يقول الدكتور مؤنس فى كتابه مصر ورسالتها : « لقد بذل الفرنسيون أقصى ما استطاعوا من الجهد لفصل تونس عن بقية أمم الشرق الإسلامى ، ومصر أولها ، وفتحوا الباب على مصراعيه لمهاجرة الإيطاليين حتى كادت جاليتهم تكون خطراً على الكيان البشرى التونسى ، ولكن ذلك لم يغن عن الفرنسيين شيئاً ، واستمرت تونس شرقية الروح مصرية الطابع » (كذا) .

(١) ميثاق المؤتمر الوطنى التونسى المنعقد فى تونس فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٤٦ .

انحداراً شديداً ، فثار ثورة عارمة بذل فيها كل مرتخص ، وضحى بكل غال ! وبذلك نال استقلاله كما قدمنا وأصبحت « تونس دولة حرة مستقلة ذات سيادة : الإسلام دينها والعربية لغتها »[١] .

١٠

الشعب التونسى

مما تقدم نرى أن الشعب التونسى مكون من جماعات وعناصر جنسية مختلفة وفدت على تونس مهاجرة[٢] أو متاجرة[٣] ، أو جاءت إليها غازية[٤] أو لاجئة[٥] ، أو حلت بها فاتحة[٦] أو مستعمرة[٧] ، أو حملت إليها رقيقة مسبية[٨] أو مخطوفة[٩] ، أو استقدمت إليها للانتفاع بفنها وخبرتها[١٠] . لقد جاءت إليها تلك الجماعات والعناصر فى عصور

(١) من الخطاب الذى ألقاه رئيس حكومة تونس أمام المجلس التأسيسى فى ١٧ أبريل سنة ١٩٥٦ .

(٢) كالبربر . (٣) كالفينيقيين . (٤) كبنى هلال وسليم .

(٥) كالأندلسيين واليهود الذين كانوا بإسبانيا . (٦) كالمسلمين العرب .

(٧) كالرومان والبيزنطيين .

(٨) كسبايا الأروبيين الذين كان يأسرهم قراصنة المسلمين .

(٩) كالرقيق الأسود الذين كان يخطفهم النخاسون ويبيعونهم فى أسواق خاصة .

(١٠) كالصناع المصريين الذين جىء بهم لتعليم التونسيين صناعة السفن .

وأوقات مختلفة، مدموغة طبائعها وصفاتها وخصائصها الجسمية والعقلية وتقاليدها وعاداتها بطابع بيئات أوطانهم السابقة ، متأثرة بعض التأثر بمزايا بيئات طرقهم الطويلة[1] التى سلكوها للوصول إليها . ولما أناخوا بها اختلطوا بالعنصر أو العناصر التى سبقتهم ، وارتبطوا معها برباط الجوار والمصاهرة ، فأثروا فيها ، وتأثروا بها ، كما تأثروا ببيئة وطنهم الجديد ، وتفاعلت الخصائص العقلية والجسمية لتلك العناصر المختلفة بعضها ببعض وتكون منها مزيج جديد، فيه من مزاياها وصفاتها كلها ، ولكن فى الوقت نفسه فيه مزايا وصفات جديدة لم تكن فى إحداها .

على هذا النمط تكوّن فى تونس شعب متميز عن الشعوب الأخرى، يجرى فى عروق أبنائه دماء العناصر الممتزجة كلها، وبعض الميزات الجسمية والعقلية الخاصة بكل منها . على أن بعض تلك الجماعات نأت بنفسها عن الامتزاج بالجماعات الأخرى لأسباب دينية، كما فعل اليهود، الذين أدى تمسكهم بشعائرهم الدينية، التى تحرم عليهم التزاوج مع أتباع الديانات الأخرى ، والذين حدت صفاتهم الشيلوكية بكثير من أفراد الشعب التونسى إلى أن يربأوا بأنفسهم عن الامتزاج بهم ! أو لأسباب قومية، كما فعلت بعض قبائل من البربر كالطوارق وغيرهم، الذين فضلوا أن يتركوا أرضهم الخصيبة، ويهجروا أوطانهم العزيزة، على الخضوع للفاتحين، ولاذوا بالجبال وهضاب الصحراء الكبرى واتخذوها مستقراً لهم ومقاماً !

(١) اقرأ De Moulin : Comment La Route Crée le type Social

يهود تونس : لقد استوطن اليهود تونس من أقدم العصور ، فلقد جاءت أول جماعة منهم مع الفينيقيين أو فى عهد القرطاجنيين على الأقل[١] ، ولقد لجأ إليها جماعة أخرى من اليهود فى القرن الحادى عشر ، جاءوها من إسبانيا بعد أن عذبوا فيها ونكل بهم ، فرحبت بهم تونس كدأب الأقطار الإسلامية الأخرى مع اللاجئين والمستجيرين ، فزاد بهم عدد اليهود فى تونس.

ويختلف اليهود فى تونس فى دلهم وشكلهم وملبسهم وحياتهم الاجتماعية بصفة عامة عن يهود الأقطار الأخرى ، وعن مواطنيهم التونسيين الذين يدينون بديانات أخرى ! ولعل مرد ذلك إلى عزلتهم وتمسكهم بما وجدوا عليه آباءهم من عادات وتقاليد وسلوك !

ويحافظ يهود تونس الذين يسكنون الريف على تأدية شعائر دينهم محافظة شديدة ، ومما يروى فى ذلك أن يهودياً أخذ دجاجة وسار بها على قدميه عشرة أميال إلى الحاخام[٢] ليذبحها له ، ولما كان الحاخام متغيباً فى ذلك اليوم عن قريته عاد بها إلى بيته ، وظل يتردد على بيت الحاخام عدة أيام حتى رجع فقام بذبحها له !

غير أن اليهود فى المدن التونسية لا يقيمون وزناً لمثل هذه الشعائر الدينية ، فتراهم يرتادون المطاعم العامة ويأكلون اللحوم التى تقدم إليهم ، بما فى ذلك

---

(١) قيل إن يونس عليه السلام عند ما التقمه الحوت كان على سفر إلى قرطاجنة .

(٢) الحاخام الرئيس الدينى لليهود وهو فى مقام القس عند النصارى ، ومن شعائرهم الدينية قيام الحاخام بذبح العجول والخراف والمعزى والطير ، ولا يأكل اليهود لحماً من هذه الأصناف إلا إذا كان الحاخام قد ذبحه .

لحم الخنزير المحرم عليهم أكله ، ومع ذلك فإنهم أقل تسامحاً ، وأشد بغضاً للمسلمين والمسيحيين من يهود القرى ، الذين يتمسكون بشعائر دينهم ذلك التمسك الشديد الذى ضربنا له مثلا .

وليهود تونس أولياء يزورون أضرحتهم ، ومن أشهرهم الحاخام سيمون ، وعلة تقديسهم له اعتقادهم أنه ضحى بنفسه فداء لهم ، ويروون فى ذلك القصة التالية : لقد حل بهم وباء فاتك ، راح كثير منهم ضحيته ، وكان آخر من مات به ذلك الحاخام المقدس ، ولما لم يمت أحد بعده ، انتشرت إشاعة بينهم أنه خلا إلى ربه ، ودعاه أن يجعله فداء لأهل ملته ، وأن الله استجاب له ففاضت روحه ، ورفع عنهم الوباء ، فصدقوا هذه الإشاعة وآمنوا بولايته ؛ فإذا ما حل يوم زيارته من كل سنة — وهو اليوم الذى فاضت روحه فيه — هرعوا إلى مقبرته ومعهم أطفالهم يحملون الأزهار والشموع ونوعاً خاصًّا من البخور يصنعونه من الشحم والياسمين ، فيضعون الأزهار على قبره ، ويوقدون الشموع ويحرقون البخور فيه !

ويصدق اليهود لخرافات أصبحت عندهم فى منزلة العقائد الدينية ، ومن ذلك ما يرويه الكاتب هربرت ڤيڤيان[1] قال : «ذات مساء عند ما كنت فى جنوبى تونس رأيت أمة من اليهود يتزاحمون على بئر ، كل يحاول أن يلقى دلوه قبل جاره ليرفع الماء من البئر ، فعجبت ، وسألت أحدهم :

ما خطبكم ؟ !

---

(١) Herbert Vivian : Tunisia.

قال : نحن معشر يهود نؤمن بأن كتائب من الملائكة مكلفون بحراسة الأرض والهواء والماء ، ولقد علمنا من الروايات الموروثة عن آبائنا أن المكلفين منهم بحراسة هذا البئر يستبدل بهم غيرهم كل سنة مرة واحدة فى مثل هذا اليوم ، ولكننا لا نعرف الساعة المحددة لذلك ، حتى الحاخامات لا يدرونها ، ولكنهم يدرون أنها بين الساعة الثالثة والسادسة بعد ظهر هذا اليوم ! وبما أننا نعتقد أنه إذا شرب أحد من ماء البئر فى أثناء هذه الفترة ، التى تترك فيها البئر من غير حراسة ، أصيب بمرض معد تنتقل عدواه إلى غيره ، ويعم الوباء فيفنى الناس جميعاً ، ولذلك نمتنع عن الاقتراب من البئر فى أثناء هذه المدة ، وعند ما تنتهى يقبل الناس عليها عطاشاً يتدافعون بالمناكب.

ومن المصادفات الغريبة أن المسلمين التونسيين ، جيران هؤلاء اليهود ، الذين رويت هذه القصة عنهم ، يعتقدون اعتقاداً مشابهاً[١] ، وهو أنه فى ليلة معلومة من كل سنة ، عند ما تدق الساعة مؤذنة بمنتصف الليل ، يستبدل حراس البحر الملح من الجن ، ولهذا يحول البحر الملح الأجاج عذباً فراتاً فى أثناء المدة القصيرة ، التى يستغرقها استبدال أولئك الحراس بغيرهم ! وبما أنهم يعتقدون أن من يذق ماء البحر فى أثناء هذه الفترة تكتب له السعادة ، فإنهم يندفعون إلى الماء بعد أن يخلعوا ملابسهم ويعبون منه عباً .

ويحرص يهود تونس على الإكثار من النسل ابتغاء زيادة عددهم ، ولا يفتأ حاخاماتهم يذكرونهم بذلك ، ويشجعونهم على الزواج وإنجاب

---

(١) هربرت ڤيڤيان : تونس .

الأطفال بالأقوال المأثورة وضرب الأمثال . ومن أمثالهم : مثل الذين لا يتزوجون ويحددون نسلهم كمثل الذى يقتل نفساً حرم الله قتلها !

وإن تعدد الزوجات مسموح به فى الشريعة اليهودية[١] ولكن يهود تونس على الرغم من حبهم لكثرة الذرية لايتزوجون عادة بأكثر من واحدة، إلا إذا كانت الزوجة الأولى عاقراً ، وفى هذه الحالة تطلق الزوجة الأولى عادة توفيراً فى النفقة !

وزواج اليهودى من غير إسرائيلية غير مرغوب فيه، لاعتقادهم أنه ينتج بناتاً ، وإلى وقت قريب كانت الزوجة اليهودية التى لا ولد لها إذا مات عنها زوجها، حق لها شرعاً أن تتزوج أخاه إذا كان له أخ! فإذا رفض، جاز لها فى شريعتهم أن تقاضيه وأن تخلع نعليه أمام الملأ وتقطعهما ، وفى ذلك مسبة الدهر وعار الأبد ! ولأجل أن تتجنب أسرة الزوج ذلك الإجراء، يلجأ الزوج حين تحضره الوفاة إلى طلاق زوجته؛ ومن المشاكل الكثيرة التى تنجم عادة عن كثرة أفراد الأسرة الواحدة صعوبة عولهم والصرف عليهم ، ولكن يهود تونس يتغلبون على ذلك بتنشئة أطفالهم منذ نعومة أظفارهم على القيام بعول أنفسهم بشتى الطرق، فإذا ما بلغ الفتى أو الفتاة ثلاث عشرة سنة عد مسئولا عن نفسه، ولا ينبغى له أن ينتظر عوناً أو مساعدة من أحد ، وكثيراً ما التقيت فى تونس بفتيان إسرائيليين على

---

(١) لقد كان لداود عليه السلام ٩٩ زوجة ولابنه سليمان عليه السلام أكثر من ثلثمائة زوجة !

رأس أعمال ناجحة يصرفونها بحكمة ودراية ومهارة !

ويلى الإكثار من النسل عندهم فى الأهمية – وقد يفوقه عند كثير منهم– جمع المال من شتى وجوهه ، والتشمير له بعد اكتسابه ، ولقد ذهبت بتفصيل ذلك كتب وقصص كثيرة ، وضربت الأمثال فى تضحية اليهودى بكل غال فى سبيل الحصول على المال .

والزوج اليهودى ملزم شرعاً بسد حاجات زوجته ، ومع ذلك فينبغى لها فى عرفهم أن تعمل مهما كانت ثروة زوجها أو ثروتها الخاصة ! وإذا ما عادت الزوجة من عملها ، فرض عليها القيام بخدمة زوجها فى أثناء تناوله الطعام ، وبإعداد غرفة نومه والتى لا ينبغى أن يقوم أحد غيرها بذلك !

وإن أهم حادث فى تاريخ أية أسرة إسرائيلية هو حفل الزواج ! الذى قد يستمر ثلاثة أسابيع متوالية ، إذا كانت الأسرة ميسورة الحال !

فإذا ما تم الاتفاق على زواج فتى بفتاة ، قام الفتى قبل عقد الزواج بأسبوع بإرسال صرة للعروس المختارة تحوى ملابس مختلفة ، وحذاء [١] مزخرفاً ومجموعة من أدوات الزينة ، وفى يوم معلوم يذهب كل من العروس والعريس ، يحف بكل منهما ثلة من الأصدقاء والصديقات والأقارب والقريبات إلى الحمام العام ! فإذا ما رجعت العروس إلى بيت أهلها ، تسلمتها (الماشطة) فلطخت شعرها بزيت خاص ، تفوح منه رائحة تزكم

---

(١) يقصد ما يطلق عليه فى مصر شبشب .

الأنوف ، ثم أزالت الشعر من أجزاء جسمها[1] المختلفة ، باستعمال عجينة خاصة ، وتزجج لها حواجبها وتكحل عينيها بطبقة سميكة من الكحل ، وتصبغ أظافر يديها ورجليها بالحناء !

وفى يوم معلوم تقوم العروس بطهو دجاجة ، ثم تضعها فى مكان خفى ، ويأتى العريس ومعه صحبه الأدنون ، فيقومون بتفتيش بيت العروس زقاً زقاً للعثور عليها ، وإن عملية البحث عنها تضفى على أهل البيت والضيوف جواً من الغبطة والسعادة ولوناً من المرح والسرور ، ويعتقدون أن الذى يعثر على الدجاجة يكتب عليه الزواج فى خلال عام !

ولا يعقد عقد الزواج فى البيعة كما يفعل المسيحيون ، ولكنه يعقد فى بيت الزوج ، واستعداداً لذلك يطلى سلم البيت بالجير الأبيض الناصع ، ثم ترسم فى مكان ظاهر منه صورة يد كبيرة بدم ثور ، اتقاء العين والحسد.

وفى بيت العروس يجتمع القريبات والصديقات ويشتركن فى تزيينها وإلباسها أثوابها الحريرية الفاخرة وحليها من عقود براقة وأساور وخواتم من فضة .

ولقد عجب هربرت ڤيڤيان حين رأى الرجال يشتركون مع النساء فى إلباس العروس ملابسها من غير أن تشعر بخجل أو يبدو عليها حياء ، وعندما تنتهى العروس من زينتها تغادر بيت أهلها مبدية تمنعاً تمثيلياً ، وتسير تحف بها النساء من أهلها وصاحباتها إلى بيت زوجها تتقدمهم مغنية مأجورة

---

(١) ويستثنى من ذلك شعر رأسها بالطبع .

تردد أغانى تعدد فيها محاسنها ، فتجد عريسها فى انتظارها فى الفناء ، وقد وضع فى صدر الفناء عرش مغطى بغطاء مطرز بالذهب ، وعند ما يهل موكب العروس يسارع الزوج إليها فيأخذ بيدها ويساعدها على الجلوس على العرش ، فتجلس عليه متكلفة الوقار والحشمة ! ويتقدم العريس منها ويكشف عن وجهها ، مخافة أن تكون قد استبدل بها غيرها ، ولا بدع فكثيراً ما يستبدل الأب أو الأخ أختاً قبيحة بأخت جميلة رآها العريس فرغب فى زواجها لصفاتها التى أحبها فيها . فإذا كانت عروسه المختارة ، تحسس أصابعها حذر أن يكون قد وضع حبيب لها خاتمه فى يدها ، إذ أن ذلك يعد فى عرفهم عاراً لا يمحى !

وعند ما يضع العريس خاتمه فى إصبعها يثير الأهل والأصحاب المدعوون ضجة وصخباً وزياطاً وضوضاء ، يتخللها قرع على الطبول وترانيم دينية مزعجة .

وعند ما تسكن العاصفة ، يلقى على الزوجين غطاء خاص ، رمزاً للرباط المقدس بينهما ، ثم يؤتى بكأس كبيرة ملأى بالخمر ، ويقدم لكل من العروس والعريس والحاخام والمدعوين من أقارب وأصدقاء ، فيأخذ كل منهم رشفة واحدة ، ويحدث عادة هرج ومرج وتدافع ليأخذ كل رشفته قبل الآخر ، وعند ما تفرغ الكأس ، يضرب بها عرض الحائط ، فيهجم الحاضرون على قطعها المتناثرة على الأرض ابتغاء الحصول على قطعة منها ليحتفظوا بها تذكاراً لهذه المناسبة السعيدة . ويعقب ذلك وليمة كبيرة تقدم فيها أنواع

كثيرة من الفطائر والحلوى والمشروبات ، ويوضع فى وسط المائدة الرئيسية شمعة ضخمة صفراء اللون ! وتجلس العروس على رأسها متربعة على حشيات لينة وهى تنوء بالعقود والأحجبة ، متصنعة الرزانة إذا رأيتها حسبتها دمية لا حراك بها !

ويعقب الوليمة حفلة ساهرة تستمر إلى ساعة متأخرة من الليل[١] !

وإذا مات يهودى تونسى سارع إلى بيته نفر من الحانوتية ، ويطلق عليهم فى تونس أصدقاء الله ، فيقومون بإعداد الجثة للدفن ، ويضعونها فى غرفة ويحيطون بها ويرتلون بعض آيات من التوراة ، وفى غرفة مجاورة تجتمع نساء الأسرة وصديقاتها يبكون ويرددون ما تقوله نائحة مستأجرة بصوت مرتفع ! ثم تحمل الجثة إلى المقابر ويبيت حولها عدد من أصدقاء الله لحراستها مدة ثلاثة أيام سويًّا !

ولليهود فى تونس أحياء خاصة بهم فى كل مدينة أو قرية، بها حارات تبذ فى القذارة شرقى لندن وغتو فرانكفورت ، إذا زرتها شممت روائح كريهة تزكم الأنوف وتتقزز لها النفس، وفى كل حانوت من حوانيتها وفى كل ركن من أركانها كتل من الذباب متكأكئة على كومات من الأوساخ! وإذا شاء لك جدك العاثر أن تسلك حارة من حاراتها وجدتها تلتوى فى غير

(١) يعرض فيها عدة مسليات من غناء ورقص وألعاب حواة ، وتقليد أصوات الحيوانات والطيور المختلفة تتخللها قطع موسيقية .

مناسبة ولغير ما سبب ، ترى البيوت تبرز تارة وتتراجع تارة أخرى كما يحلو لأصحابها أو يوحى لهم خيالهم المريض ، لا يراعون نظاماً أو دستوراً للبناء ، وعن اليمين وعن الشمال طرق مسدودة ومخازن مظلمة تنبئ عن أسرار مغلقة !

وإن الدخول إلى بيوت اليهود فى تونس ليس محظوراً كما هو الحال فى بيوت التونسيين المسلمين : فهى كلأ مباح ، ومن السهل الميسور على كل سائح متجول أن يؤذن له بدخول أى بيت يهودى يشاء !

فإذا دخلت وجدت فناء فسيحاً تحيط به الغرف عن اليمين وعن الشمال . وتسكن كل أسرة غرفة من هذه الغرف، علماً بأن عدد أفراد الأسر اليهودية كبير كما قدمنا ! وأثاث الغرفة وما فيها من فرش قليل، ويتكون عادة من سرير كبير جدًّا يتسع لاثنى عشر شخصاً ، وصندوق ضخم توضع فيه ثياب السبت القيمة الخاصة بأفراد الأسرة جميعاً ، وخوان غير مهذب له أرجل قصيرة ! وفى جانب من جوانب الغرفة موقد وبجواره قدور سوداء وأوان وصحاف قذرة ، ويفوح من البيت كله الروائح الكريهة التى تنبعث عادة من المجارى إذا انفجرت إحدى مواسيرها .

وعند ما تهم بالخروج من البيت يخف نحوك أهل البيت جميعاً من الحاخام ذى اللحية الطويلة القذرة، إلى الأطفال الصغار نصف العراة ، ويحيطون بك من كل جانب ويلحفون فى طلب ما تجود به نفسك لقاء فرجتك عليهم واطلاعك على حرماتهم ! وخير لك وأبقى لمالك

أن تعطيهم جميعاً قدراً من المال، يقوم الحاخام بتوزيعه عليهم .

وخير يوم لزيارة الحى اليهودى فى أية مدينة هو يوم السبت، لأن اليه
يقومون بتنظيف بيوتهم فى يوم الجمعة استعداداً لاستقبال السبت المحرم
وفيه يلبسون أفخر ملابسهم وتبدى نساؤهم زينتهن، وفى يوم السبت لا يقو
اليهود — رجالاً ونساء — بأى عمل فلا يوقدون ناراً ولا يطهون طعاماً !

ولا يشترط فى الحاخام أن يكون عالماً بالدين وبشعائره ! ولكن يكف
أن يكون ماهراً فى الذبح وفى الختان ، كما أن بيعهم لا تفرقها عن البيو
العادية ، وكثيراً ما يسكن الحاخام وأسرته فى شطر منها ، ويؤ
أجزاء منها حوانيت ومصارف صغيرة لاستبدال النقود وتسليفها ؛ وتشتم
عادة على فناء متسع يجتمع فيه الرجال وشرفة عالية للنساء ، ولم أر فى
بيعة زرتها محاولة لتجميلها أو المحافظة على أناقتها ونظافتها .

ولقد شبه أحد الرحالة الألمانيين إحدى بيع يهود تونس بالمقهى
(البرصة) فيها يتجول أفراد الطائفة ويجتمعون أزواجاً وجماعات ، يبحث
بصوت عال الأحداث الجارية وأسعار السلع والبضائع ، ويتخلل حدي
ومجادلتهم الضحكات العالية والنكات والملح المستظرفة، لا يشعرون بقدس
المكان ، وقليل منهم من يتأثر بما يلقى فيها من عظات وكثيراً ما قاطع أ
الحاضرين واعظهم واحتدم الجدل بينهما[1] !

وإذا بلغ الفتى اليهودى الثالثة عشرة عد بالغاً ، فيؤخذ إلى البيعة ليؤ

---

(١) هربرت فيفيان : تونس .

امتحاناً فى قراءة التوراة ويناقش فى الشعائر والعقائد اليهودية ؛ فإذا نجح فيها جاز له أن يلبس وشاحاً خاصًّا على أكتافه فى الأحفال الدينية وحق عليه أن يصوم صومهم ويصلى صلاتهم فى أوقاتهما !

وإن كثيراً من مسيحيي تونس يزعمون أن اليهود يخطفون أطفالهم ليشربوا دماءهم فى بعض المناسبات الدينية ! وإن هذا الاعتقاد لشائع فى كثير من الأقطار المسيحية منذ عدة قرون ! حتى ليصعب علينا أن ننفيه نفياً باتًّا على الرغم من أنه تعوزه البينات والبراهين القاطعة (١) .

---

(١) إن من يقرأ مقال الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك المنشور فى أسرار العالم تحت عنوان : وحشية اليهود فى إحدى جرائمهم المذهبية يصدق ما قيل وما يقال عن خطف بعض اليهود الأطفال ليذبحوهم كما تذبح الخراف ويستنزفون دماءهم ليعجنوا بها نوعاً خاصاً من الخبز يتناولونه فى بعض مناسبات دينية !

قال الأستاذ الذى قدم لمقالة الأستاذ يوسف : « كانت أمهاتنا يحذرننا فى طفولتنا من الدنو من أحياء اليهود ، لأن هؤلاء فى زعمهن يخطفون الأولاد الصغار ويضعونهم فى "سرير الشوك" لينزف دمهم فيعجنون به خبزهم المسمى « خبز الفطير » عملا بطقوس مذهبهم . . . وكثيراً ما كنا نضحك لهذه الرواية ونسميها خرافة . . . غير أن وقائع القضية العجيبة التى يعرضها الأستاذ يوسف يزبك تبعث تلك الخرافة من جديد وتثير حولها كثيراً من الأسئلة المحيرة والشكوك المثيرة ! »

ونلخص القصة فيما يلى :

جاء الراهب توما إلى دمشق . . . واستوطنها . . . وكان يقوم بمعالجة المرضى مجاناً . . . حتى أحبه الدمشقيون على اختلاف مللهم . . . وما كان ليخطر ببال أحد أن هذا الراهب الطيب الأثر سيلقى حتفه مع خادمه فى جناية مروعة تقشعر لهولها الأبدان . . . لقد افتقد الناس الراهب لغيابه عن الدير يومين . . . وبعد البحث والتحرى عرف أنه كان آخر عهد الناس به ذهابه إلى حارة اليهود . . . وحامت الشبهات حول حاخامين وأربعة يهود آخر . . . .

ويبدأ اليهودى صلاته بأن يرفع التوراة إلى جبهته ويلمسها بها ! ثم يلف سيراً من الجلد حول ذراعه اليمنى عشر مرات ليمنع — فى اعتقاده — سريان الأفكار الخبيثة إلى رأسه ليخلو الجو فيها للأفكار الحسنة التى تنشأ عنها الأعمال الصالحة !

ولا يزال اليهود فى تونس قلة ضئيلة[1] على الرغم من أن من أهم أهدافهم التناسل وكثرة الولد إذ أن عددهم لا يزيد على ٧٠٩٧١ .

وبعد لأى اعترف شاهد وكان حلاقاً يهودياً قال « بعد نصف ساعة من مغيب شمس الأربعاء بعث داود هرارى خادمه — وهو أحد المتهمين السبعة — يدعونى من دكانى فذهبت إلى بيته ووجدت عنده هارون وإسحق ويوسف هرارى ويوسف ليناردى والحاخام أبو العافية والحاخام بيخار يهودا والراهب توما مربوطاً . ولما دخلت قال لى داود وأخوه هرون : قم اذبح الراهب فأجبتهما لا أقدر فقالا لى إصبر ، ثم جاءوا بسكين فتقدمت وبطحت الراهب أرضاً وأمسكنا به جميعاً ووضعت رقبته على طشت كبير وأخذ داود السكين وذبحه ، وكمل عليه هارون وأخذوا دمه بالطشت ، وما تركوا نقطة تسقط خارجه — ثم حرقت ثيابه وقطع جسمه إرباً إرباً وكسرت رأسه وعظامه بيد الهاون ؛ ورميت جثته فى البحر ، واعترف آخر بأن دمه أخذ ليخلط به عجين الفطير — ثم اعترفوا جميعاً بالجريمة الشنعاء ، ومما قالوه فى اعترافاتهم ! إن الحاخامين السالونيكلى وأبا العافية هما اللذان استدرجا توما الراهب إلى المنزل الذى قتل فيه وخدعاه بقولهم إن فيه ولدا يريدان تلقيحه ضد الجدرى فصدق الراهب المسكين ودخل ليقوم بواجبه الإنسانى ولم يخرج — لقد ذبحه زبانية البشر ذبح الخراف ! فيا لوحشية معشر يهود !

(١) لقد هاجر عدد كبير منهم إلى مصر فى عهود مختلفة ، وفى أول عهد الموحدين بخاصة « ومن الطريف أن عدداً كثيراً من الجالية اليهودية فى مصر أصلهم من يهود تونس هاجروا إليها وتمصروا » (حسين مؤنس : مصر ورسالتها) .

قبائل البربر الخلص :

لقد ذكرنا أن البربر سكنوا آخر الأمر فى ظل العرب الفاتحين إلى الدعة وطفقوا ينتحلون صفاتهم وعاداتهم ، ويأخذون بمذاهبهم فى السلوك ، ويتشبهون بهم فى الملبس والمركب والسلاح ، ويرتبطون معهم بالمصاهرة والمصالح المشتركة ، وسرعان ما تناسوا نعرتهم الوطنية وعزتهم القومية واندمجوا فى العرب اندماجاً حمل بعضهم على انتحال نسب عربى وإذاعته بين الناس — شأن كثير من المسلمين غير العرب فى الأقطار الإسلامية المختلفة — لما يرجونه من المنزلة عندهم !

ولكن شذ عن ذلك بعض القبائل ذات العصبات القوية التى على الرغم من اعتناقها الإسلام ، وغلوها وإغراقها فيه ، واستبدالها اللغة العربية — لغة القرآن — بلغتها البربرية ، فإنها أنفت أن تؤدى المغارم للفاتحين وبرمت بما لقيته من بعض الولاة كعبد الله بن الحبحاب من الظلم والفساد[1] وانتبذت بنفسها مكاناً قصياً حصيناً بين هضاب وجبال صعبة المرتقى ، وعرة المنحدر ، وعثة المسالك ، وهناك وجدت الحرية واطمئنان النفس وراحتها ، فاستقرت حيث شاءت ، ولا تزال حيث هى ، تحافظ على بعض ما وجدت عليه آباءها من تقاليد وعادات ، وما فتئت تتبع نظام الأسرة « فتكون من مجموع الأسر التى يتحد أصلها وحدة اسمها الحروبة

---

(١) ابن خلدون .

تخضع لسلطة كبيرها الذى يشرف على حفظ النظام وفض المشاكل العائلية والقضايا المدنية ، ويرجع إليه أمر الزواج والطلاق ، ويقوم بإكرام الزائرين والضيوف ، ويسير الأمور الفلاحية ويوزع أعباءها على أفراد خروبته .

ومن مجموع الخروبات تؤلف القبيلة مجتمعة حول ذكرى جد أعلى . وتعنى القبائل أكبر عناية بموضوع الحرمة أى احترام الجوار لأرض القبيلة أو القرية وشرفها ، وبتحالف القبيلة مع القبائل الأخرى للهجوم أو الدفاع أو تبادل المصالح .

ولهذه القبائل البربرية مجالس عرفية هى مجالس الجماعة ، يجتمع فى كل منها رؤساء الخروبات والمشايخ والأعيان ويلقبون بالضمان . ويختص المجلس بالنظر فى قضايا الجنايات والجنح وفى الشئون السياسية والمالية ، ويقوم بعمارة المساجد والمحافظة على المقابر وتوزيع مياه الرى وإضافة رجال السلطة . ويجب أن تصدر قرارات المجلس بإجماع الآراء ، فإن لم ينعقد الإجماع على رأى ، تأجل صدور القرار إلى وقت ملائم آخر ، أو جرى تحكيم أجانب عن المجلس فى موضوع الخلاف ، ويكون قولهم هو الفصل ، وللمجلس رئيس ينفذ قرارات الجماعة ويسهر على الأمن واحترام الأخلاق » [1] .

---

(١) الكاتب المصرى : ص ٣٣ — ص ٣٥ بلاد المغرب : لعبد الله عنان .

الطوارق :

ومن أشهر قبائل البربر وأذيعها صيتاً ، وأبعدها همة وأشدها شكيمة الطوارق ، ويسميهم البعض توارك ، ويزعمون أن علة هذا الاسم أنهم — كغيرهم من قبائل البربر — سكنوا إلى الإسلام حين جاءهم به العرب المسلمون ؛ ولكنهم سرعان ما تبينوا أن الولاة والحكام يفرقون بينهم وبين العرب الوافدين[1] ، وأن الأخيرين يعلون عليهم علوًّا كبيراً فثارت ثائرتهم وأخذتهم العزة بالإثم فتركوا بلادهم وتركوا دينهم ، وسموا لذلك توارك ، ولما خلوا إلى أنفسهم وثابوا إلى رشدهم وأتمروا بينهم فرقوا بين العرب والإسلام فرجعوا إلى الإسلام أشد استمساكاً به وغلوًّا فيه ، وظلوا يعتزلون العرب ، ويناصبونهم العداء ، ويتربصون بهم الدوائر .



طارق بلثامه

والطارقى وسيم فارع الطول ، عريض الأكتاف ، نحيف القوام

---

(١) وكان لدعوة الخوارج الذين وفدوا على المغرب من الشرق أثر كبير فى إيجاد عصبية بربرية ضد العصبية العربية . ابن خلدون .

مهيب الطلعة ، جليل المظهر ، تشع من عينيه السوداوين اللامعتين حيوية وقوة وشراسة ، وقل أن تجد بينهم البدين الضخم ! وصفهم رحالة غربى قال : . . . وفى الجملة إنهم صورة حية لخيالنا فى صبانا عن العمالقة والمردة الذين يرد ذكرهم فى القصص الخرافية والأساطير ! وقال آخر : (إنهم صنف بديع من البشر) وقال آخر : . . . يبدو الطوارق فى شملتهم البيضاء ونقابهم الأزرق كأنهم مخلوقات خيالية تختفى خلف دروعها ، ترى الواحد منهم فى أثناء مشيته أشبه برصاصة منطلقة !

وقال آخر : وقد آثرت أن أنقل قوله بلغته :

"Their haughty demeanour and majestic bearing and picturesque equipment do make them look like the survivors of some high and mighty lords of the past".

ويلبس رجال الطوارق لثاماً أسود أو أزرق أو أبيض[1] لا يخلعونه فى حلهم أو ترحالهم ، فى يقظتهم أو نومهم ، حتى فى أثناء تناولهم الطعام[2] ويصبغ بعضهم ما يظهر من وجوههم فى أعلى اللثام بأصباغ مختلفة الألوان تلقى الرعب والخوف فى قلوب من يراهم أو يلقاهم فى السلم وفى الحرب !

ولقد ذهب الباحثون مذاهب شتى فى أصل اللثام وسبب لبسهم له :

---

(١) يلبس نبلاء الطوارق ألثمة سوداء أو زرقاء ، ويلبس مواليهم ألثمة بيضاء .

(٢) النقاب (نقاب الطوارق) رائع بلونه الأزرق المصبوغ بمادة النيلة ، وهى صبغة غير ثابتة تترك آثاراً على الجلد مثل ورق الكربون ، ولذا تبدو بشرتهم كأنها مصبوغة بلون أزرق ، وهم يستخدمون فضلا عن ذلك مادة زرقاء يكحلون بها جفونهم . (المختار مارس سنة ١٩٥٧ مع قبائل الطوارق حيث يلبس الرجال الحجاب) .

فيرى بعضهم أنه نوع من عدد التخفى كالأقنعة التى يضعها رجال العصابات واللصوص على وجوههم ليخفى أمرهم على من يراهم ! [١]

ويرى البعض أنهم اتخذوه واقياً من الرمال السافية والرياح العاصفة فى أثناء اختراقهم الصحراء ، ثم صار عادة لازمة لهم ! ويرى آخرون أن الطوارق توارثوه عن أجدادهم الذين اتخذوه فى عهد غلبة أهل السودان على الصحراء الكبرى ليحسبهم من يراهم على بعد أنهم سودان فلا يتعرض لهم بأذى أو يمسهم بسوء ! ويرى بعضهم أنه من شعائر ديانتهم القديمة السابقة للإسلام ! على حين يرى صاحب كتاب تاريخ السودان أن الطوارق حميريون ولما كانوا فى اليمن ظهر أحدهم بدين جديد فتنهم ، فاضطهدوا وقتلوا وأخذت عليهم مهاربهم ، فتلثموا كالنساء كى يفلتوا من الحصار المضروب حولهم وتمكنوا بذلك من الفرار إلى شمالى أفريقية واختلطوا بالبربر ، فتبربرت ألسنتهم ولم يخلعوا اللثام لتعودهم عليه [٢] ويرى جوتييه أنهم يلبسونه ليحولوا دون اتصال الأرواح الشريرة بنفوسهم عن طريق الفم أو الأنف [٣] .

على أن الطارقى نفسه إذا سألته عن أصل اللثام الذى لا يفارقه أبداً ،

---

(١) ولم نر أبداً وجه رجل من الطوارق ، فهم يخفون وجوههم دائماً حتى فى أثناء الطعام والشراب فيتناولون طعامهم من تحت النقاب . (نفس المصدر السابق) .

(٢) عبد الرحمن بن عبد الله السعدى : تاريخ السودان الجزء الأول ص ٢٥ — ٢٦

(٣) جوتييه : الصحراء !

رد عليك بأنه لا يعرف عنه شيئاً .

ولا يلبس صبية الطوارق اللثام ، فإذا ما بلغوا الخامسة عشرة أقيم لهم حفل خاص لارتدائه !

ومن المتناقضات المستغربة أن نساء الطوارق لا يلبسن اللثام كما كان النساء المسلمات الأخريات فى المغرب والمشرق يلبسنه حتى وقت قريب ، فهن يغدون سافرات ، ويرحن سافرات ، ويحضرن مجالس الرجال سافرات ، ويدلين بآرائهن من غير استحياء ولا حرج ، ويبدين زينتهن للأقرب والأبعد على السواء !

وفى الجملة فإن حرية المرأة الطارقية لا يحدها حد ، ومع ذلك فإنها لاتنسى وقارها أبداً ، إذا رأيتها رأيت الأدب الجم والحشمة والرزانة والجلال. والطارقية طويلة ممشوقة القد ، نحيفة القوام ، جميلة العينين صغيرة اليدين والقدمين ! قال رحالة يصفها وصف من رأى « لم أر فى حياتى أبداً أجمل من يدها وأرق من قدمها ، ولا أجمل من عينيها ، مشيتها كلها تيه وزهو وعجب ودلال ! تذكرنى بإلهات الإغريق اللائى خلد ذكرهن شعراؤهم ومثالوهم ! وإن المثل العربى : أرشق من غزال لينطبق على الفتاة الطارقية تمام الانطباق ، كأنما ضارب المثل كان ينظر إليها وهو يضربه ! وإن أنسى لا أنسى ابتسامتها الحلوة الوضاءة وضحكتها المليئة الرنانة ! »

وملابس الطارقيات بسيطة ، وهن لا يملن إلى الألوان الزاهية البراقة ولا يلبسن من الحلى إلا القليل !


طارقية

وليس بمحظور على الفتاة الطارقية أن تحب وتهوى ، ولا جناح عليها إذا بثت حبيبها وجدها وغرامها ، أو طارحته أشعار الغزل ، وكثيراً ماتركب الفتاةالطارقيةالمحبة مطيّتها ، وتسير مسافة طويلة لتزور الحبيب الذى بعد مزاره وقد لا ترجع إلى حلتها قبل مطلع الفجر !

وإن من الأوضاع المقلوبة عند الطوارق أن تتقدم الفتاة لخطبة الفتى على عكس المألوف عند الناس جميعاً !

ولقد كان الطارقى قبل اعتناقه الإسلام وأخذه بفضائله ، لا يرى غضاضة فى تقديم زوجته للضيف العزيز مبالغة فى إكرامه ، وكان إذا رفض ذلك الضيف ذلك التكريم الممقوت غضب غضباً شديداً ، وعد ذلك إهانة لزوجته وطعناً فى محاسنها ! ولكن تلك العادة القبيحة زالت [١] بعد اعتناقه الإسلام ، ومن عادات بعض الطوارق أنهم إذا أرادوا أن يتكهنوا بالمستقبل باتوا على قبور أسلافهم فيرون فى رؤياهم ما يعتقدون أنه ما سيكون !

---

(١) هذه العادة شائعة حتى الآن عند كثير من قبائل جنوب السودان وفى بعض أنحاء الحبشة .

وكذلك تفعل الفتيات المحبات لترى فى أحلامها أطياف المحبين الذين يكونون على سفر يغزون أو يتجرون !

ويلبس رجال الطوارق أثواباً فضفاضة معظمها من قطن كانو[1] المصبغ ، ويميلون إلى اللونين الأزرق والأسود ، ويكثرون من لبس الأحجبة اعتقاداً منهم أنها تجلب لهم الحظ السعيد وتقيهم الشر وتمنع عنهم الحسد ! والطارقى كريم يقرى الضيف ، وهو بوجه عام رزين كتوم ولكنه فى مجالس مرحهم يميل مع رفاقه لسماع الفكاهات والطرائف والملح والنوادر ويستجيبون لها وينعمون بها فيضحكون من أعماق قلوبهم ، يضحكون كثيراً وطويلا !

ولكنهم مع ذلك محبون للانتقام ويحرصون على الأخذ بالثأر ! ومن ذلك ما يروى أن طارقيًّا تغيب عن حلته مع رجالها فأغار عليها بعض الأعداء فقتلوا — ممن قتلوا — ولديه ، وسبوا زوجته ، فظل سنين عديدة يبحث عمن قتل ولديه وسبى زوجته حتى عرفه ، فأخذ يطلبه ولم يتطرق إليه اليأس حتى عثر عليه ، فأمسك به وجره فوق الرمال إلى حيث دفنه حيًّا إلى كتفيه بجوار قرية للنمل . . . وجاء إليه فى الصباح فلم يجد منه إلا جمجمة فارغة ، لم تبق النمال للذر فيها نصيباً !

والطوارق شعراء بطبيعتهم ، ونساؤهم بخاصة ، وهم كعرب الجاهلية يقيمون أسواقاً أدبية يلقى فيها الشعراء ، رجالاً ونساءً ، قصائدهم الجديدة ،

---

(١) كانو : مدينة من مدن نيجيريا .

وينشدون ملاحم تاريخية يشيدون فيها بأفعال أبطالهم وبطلاتهم السابقين فى حروبهم وغاراتهم ، ويقصون أساطيرهم منظومة ، ويتبارون فى إجادة الحوار وسرعة البديهة ، وكثيراً ما تتصدى امرأة شاعرة لفحول الشعراء من الرجال وتتغلب عليهم !

ويسافر الشعراء ونبلاء الطوارق مئات الأميال لحضور إحدى هذه الأسواق الأدبية !

وتنعقد هذه الأسواق أو المحافل الأدبية فى الليل والقمر بدر.

وعلى الرغم من أن موسيقى الطوارق بدائية قليلة النغمات ؟، فإنهم يعشقونها ويحرصون على سماعها أما أغانيهم فأراجيز حماسية تقص أمجادهم فتثيرهم وتذكى نخوتهم !

ويحمل الطارقى البالغ سيفاً كبيراً مستقيماً غير مدبب الطرف ، وخنجريد ، ويمسك رمحاً أوحربة ، ويتنكب ترساً طويلا ضخماً مصنوعاً من جلود الظباء أو الوعول ، وبدأوا يستعملون القذافات !

وينقسم الطوارق ثلاث فئات متفاوتة مختلفة درجاتها فى شرف المحتد والمرتبة الاجتماعية ، ولا تتزوج فئة من فئة أخرى إلا نادراً[١]

١ ــ **النبلاء أو الأشراف** : وهم القواد فى الحروب والغزوات والزعماء

---

(١) إذا تزوج رجل من الموالى من امرأة من الأشراف أو النبلاء ــ وهو أمر لا يحدث إلا نادراً أصبح أطفالها من النبلاء ، أما إذا تزوج رجل من النبلاء امرأة من الموالى فإن أطفالهما لا يصبحون نبلاء !



ثلاثة رجال من الطوارق على ظهور الإبل ، ويحملون دروعهم

فى زمن السلم ، ولذا فهم الذين يضعون خطط الغزوات والحروب وسير القوافل ، ومن النبلاء يختار (الأمينوكال) أو سلطان الطوارق جميعاً ، والذى يقوم باختياره نساؤهم، وليس ذلك بعجيب لأن الطوارق يخضعون للنظام الأموى[١] الذى يجمع مقاليد الأمور فى يد الأم ، وكان لذلك أهل الأم هم أصحاب السلطة والزعامة والخال رئيس الأسرة لا الأب.

٢ ــ **الموالى** : ويتبع كل قبيل منهم قبيلا من النبلاء يدينون لهم بالولاء ، ويلوذون بحماهم ، ويمدونهم بالرجال فى الحروب والغزوات ، ويؤدون لهم الجزية !

وللأشراف الحق أن ينزلوا على مواليهم فيقوم الموالى بتقديم كل ما يلزم من طعام لهم ولأهلهم ولأتباعهم ، ومن علف لخيلهم وجمالهم[٢]

(١) من الغريب أن الطوارق يحرمون على أنفسهم أكل الورن والسحلية الكبيرة وذلك لاعتقادهم أنها من خؤلتهم : جوتييه : الصحراء ص ١٨٢ .

(٢) لاحظ الذين عاشروا نبلاء الطوارق أنهم لا يستغلون حقهم على الموالى فى الضيافة إلا نادراً .

٣ — **الخدم** : ويقومون بمعظم الأعمال اليدوية فينظفون البيت ويطهون الطعام ويخبزون الخبز ويخيطون الملابس ويغسلونها ويزرعون ويرعون !

والأشراف والموالى كلاهما من الجنس الذى يطلق عليه الجغرافيون القوقازى ويكاد لا تفرق بينهم فى اللمحات ! أما الخدم فمن الزنوج !

ويمجد الطوارق وبخاصة نبلاؤهم الشجاعة والفروسية !

ويقيمون لذلك حلبات يتبارى فيها فرسانهم بالسيوف والتروس ! وإن كلفهم بإقامة هذه الحلبات ورسمهم علامة الصليب على تروسهم جعلت بعض كتاب الغرب ورحاليهم يزعمون أنهم من سلالة الصليبيين أتباع سان لوى ملك فرنسا ، الذى قاد آخر حرب صليبية ، محاولا غزو تونس ، فلقى حتفه بعد نزوله على سواحلها فى أطلال قرطاجنة .

* * *

وفى تونس جماعة من السكان تعرفهم من لونهم الأسود ، وهم فى الأصل من أفريقية السوداء ، سباهم النخاسون ، وحملوهم إلى تونس وباعوهم فى أسواق الرقيق بها عبيداً ، وإن فك رقابهم لم تكن له النتائج الخطيرة المؤلمة التى خلقها عتق العبيد فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والتى لا تزال آثارها السيئة قائمة فى حياتهم الاجتماعية ، وحزازاتها تجثم على صدورهم وترين على قلوبهم ! ذلك لأن الدين الإسلامى يسوّى بين الأمير والسوقة ، وبين العبد والسيد ما دام يجمعهم الإسلام « لأن المسلم

أخو المسلم ، والناس سواسية كأسنان المشط[١] » فلا تفاضل ولا تفرقة بين العناصر إلا بالإحسان والتقوى ! وإنك إذا رأيتهم لا ترى فيهم ما يدل على مهانة أو ذلة أو صغر همة أو خنوع ، ولكنك ترى فيهم الإحساس بالعزة والكرامة والاعتداد بالنفس والاطمئنان ، والشعور بالثقة فى المستقبل بادية على وجوههم : كتب عنهم صاحب كتاب تونس قال : « إنهم أكثر سكان تونس ظرفاً ودعابة ، إذا رأيتهم رأيت وجوههم تنضح بالبشر ، والابتسامة لا تفارق شفاههم ، لا يعكر مزاجهم معكر ، ولا يثيرهم أمر مهما جل وعظم لا ينثنون لذعر ! ولا يقيمون فى أحياء خاصة بهم كما يفعل اليهود ، ولا يلبسون ملابس تميزهم عن سواهم ، غير أنهم ينفرون من ارتداء الملابس السوداء ، لأنهم يتطيرون من كل شيء فيه سواد ، وجلهم يحترفون بياض الدور بطريقة الرش »[٢] .

وفى تونس جاليات أجنبية كثيرة أهمها الجاليتان الفرنسية[٣] والإيطالية[٤] ولكل جالية من هذه الجاليات حيها الخاص فى المدن التونسية الكبيرة ، وإنك إذا زرت حيًّا إيطاليًّا خيل إليك مما تسمع وترى أنك فى بلد إيطالى فى قلب إيطاليا نفسها ، كذلك إذا مررت بحى فرنسى

---

(١) من قول لعمر بن الخطاب لجبلة بن الأيهم .

(٢) هربرت فيفيان : تونس .

(٣) كان فى تونس قبل إعلان استقلالها نحو ثمانين ألفاً من الفرنسيين المستوطنين ، فترك البلاد منهم نحو نصفهم ، ولا يزالون يهجرونها !

(٤) كانت أكبر الجاليات عدداً قبل احتلال فرنسا لتونس الجاليتان الإيطالية والمالطية .

شعرت كأنك فى أحد أحياء پارى .

وإن بين الفرنسيين والإيطاليين المستوطنين فى تونس عداوة متأصلة وبغضاً مريراً متبادلاً لتنافس دولتيهما فى الماضى على احتلال تونس ، وكان الإيطاليون يعتقدون أنهم أولى من فرنسا فى استعمارها كأنما خلق الله الشعوب الأفريقية لتكون لأحدهما أو كليهما أو لغيرهما من الدول الأوربية عبيداً وخولا !

لقد أخذ التونسى من البربر بياض بشرته[١] ، ومن القرطاجيين حبه للحرية ، ومن العرب نبل مظهره[٢] ، ومن الترك استعلاءه ، ومن الفرنسيين طراوته . وهو ، بوجه عام ، مهذب ، مهيب الطلعة ، صبور[٣] ، سمح ، كريم ، يرحب بالضيف ، ويكرم وفادته . والتونسى يعتد بنفسه ، ويعتز بعروبته ، ولكن اعتداده بنفسه الذى يغالى فيه أحياناً حتى يشرف على هوة الغرور المردى ، كثيراً ما يزحزحه عن سجيته

---

(١) أخذ بعض التونسيين فوق بياض البشرة زرقة العيون واصفرار الشعر .

(٢) كتب هربرت ڤيڤيان يصف سكان تونس ويسميهم فى كتابه تونس العرب ، قال : كل شىء من العرب يؤكد نبل نفوسهم والعظمة والجلال اللذين يتجليان عليهم وهم يسيرون حفاة بما عليهم من أسمال بالية أو فى ثياب الوشى المنسوج بالذهب والفضة وعليهم العباءات من القصب !

(٣) وكتب أيضاً فى تونس : الإنسان والحيوان يحملان فوق طاقتهما ، لقد رأيت حمالا تونسياً يحمل سبعة كراسى وأريكة ومنضدة كبيرة ولوحتين كبيرتين من الخشب كلها موضوعة على كتفه وضعاً منظماً .

فيورطه فى اتباع ما يتعارض مع الصالح العام للعروبة التى يتمسك بها ويفخر !

واللهجة التونسية أوضح اللهجات المغربية للسامع العربى وأقربها إلى اللهجة المصرية[١] .

والتونسيون ثلاثة أقسام يختلفون اختلافاً بيناً فى اللمحات والمظهر العام والملبس !

١ ــ سكان مدينة تونس والسهول الساحلية .

٢ ــ سكان البقاع الداخلية .

٣ ــ سكان الواحات .

١ ــ القسم الأول : ويكثر فيهم دم السكان الأولين كالبربر والفينيقيين ؛ ويغلب على لمحات كثير منهم مخايل السبايا الأوربيين وأسراهم ، وإنك لتجد فى ألقاب كثير من الأسر ما يشير إلى الموطن الأصلى لأجدادها كالفرنساوى والإنجليزى والجنوى والملطى وكريستو!

وجل رجال هذا القسم يلبسون الزى الأوربى ، والذين لا يلبسونه منهم يرتدون جبة يطلق عليها (البلوزة) وهى مفتوحة من أعلى على شكل ٧ ثم تبدأ الزراير من الوسط حتى طرفها الأسفل ، ولها فتحتان للذراعين ، ولها أربعة جيوب : اثنان فى الصدر واثنان فى الجانبين ، وتعمل فى الصيف من الحرير أو القطن ، وفى الشتاء من الصوف الخفيف الأحمر ، وقد

---

(١) انظر دكتور حسين مؤنس : المغرب .

يكون مخططاً بخطوط حمراء أو سمراء .

وتختلف الجبة (البلوزة) طولاً ولوناً باختلاف الجهات [١] .

ويلبسون تحت (البلوزة) سراويل بيضاً أو سمراً لها حجور واسعة وتمسك فى أسفلها بالساق! ويلتحفون بملفعة كبيرة على الطريقة الرومانية ، ويضعون على رءوسهم الشاشيه (الطربوش) .



فتى تونسى وفتاة تونسية

أما النساء فقد أصبح معظمهن يرتدين الزى الأوربى ، وأما المحافظات منهن فلا زلن يلبسن سراويل من القطن أو الوشى المنسوج بالذهب أو الفضة ، وفوطة [٢] وحصارة [٣] قصيرة لا تصل إلى أوساطهن

(١) إن سكان مدينة تونس يعرفون مواطن التونسيين الآخرين الذين يفدون عليهم من ملابسهم .

(٢) ما يطلق عليها فى مصر جونلة .

(٣) ما يطلق عليها فى مصر كازاكا .

وماريولا[١] ، ويلبسن فوق ذلك كله السفسارى وهى ملاءة بيضاء تلتف بها المرأة من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، وتضع على رأسها النقريطة ، وعلى وجهها الحجاب ، وهو قطعة من الصوف البنى أو الأسود ، وهو يشبه البرقع المصرى القديم .

ويكثر النساء من التزين بالحلى فيلبسن الخواتم والحلقان والأساور والحجول .

ويسكن هؤلاء الدور على اختلاف طرزها .

٢ — سكان البقاع الداخلية :

يغلب على هذا القسم الدم العربى والبربرى ، ويوجد لذلك بينهم الأبيض والأسمر ، ولقد دهش الرحالة هربرت ڤيڤيان من بياض بشرة بعضهم ولقد كتب عنهم فى كتابه تونس « إن لون بشرة أشدهم سمرة كلون بشرة الإيطاليين والإسبانيين ، وإنك لتجد كثيراً بينهم من يعدون فى إنجلترا نفسها شُقْراً ! » .

ويسكن هؤلاء فى بيوت ريفية جميلة أو فى خيام متسعة عالية ، ويتخذ بعضهم من جذوع الأشجار وفروعها زراباً يكسونها بالقش ، ويطلق عليها (جوربى) وتحفر أرضها عادة نحو نصف متر !

ويلبس رجالهم برانس فوق جلابيب من القطن ، ويلبسون على

---

(١) هو القميص الداخلى : الشعار .

رءوسهم طرابيش حمراء بدون زر تسمى المطروزة يلف حولها عمائم بيضاء أو مطرزة بلون أصفر ، ويضعون فوق المطروزة الملفعة أو اللثام وهو من منسوج أبيض ! وينتعلون عادة بلغاً صفراء ذات نعال خضراء !

وفى الريف الجنوبى يلبس الأعيان (البلوزة) وفوقها القشابية وهى جبة من الصوف البنى ، ويلبسون فوق الرأس الشاشية وهو طربوش أحمر بدون زر ، ويغطى بما يسمي الزنار وهو متصل بالقشابية .

أما نساؤهم فيلبسن ملاءتين زرقاوين واحدة من الأمام وواحدة من الخلف ولا تخاطان ببعضهما ببعض ، ولكن تشبكان على الكتفين بمشبكين من فضة ، ويلبس عليهما حزام أحمر يربط بحلقة من نحاس ويغطين رءوسهن بعمامة ، يضفين عليها لثاماً يغطى الرأس والأكتاف ويحلين آذانهن بحلقان كبيرة من الفضة تشبك بالعمائم لتتحمل أثقالها منعاً من إلحاق الأذى بالآذان ! أو يلبسن فى أجيادهن بنيقات يعلق بها أصناف كثيرة من الحلى والأحجبة وقطع المرجان والكهرمان .

٣ ــ سكان الواحات :

يرى بعضهم أنهم خليط من السكان الأولين السابقين للبربر ومن السودانيين ، وهم سمر البشرة ذوو أفواه بارزة وشفاه غليظة وجباه منحدرة (متراجعة) وأذقان صغيرة داخلة (متراجعة) .

وينزل حول الواحات قبائل بدوية من أصل عربى ينتجعون الكلأ بقطعانهم من إبل وأغنام .

ويلبس الرجال فى الواحات القريبة من الساحل غلالات سمراء من الصوف ، وعباءات قصيرة ، أما فى الواحات الداخلة فيلبسون قطعة من المنسوج الأسمر يلفونها حول أجسامهم كالتوجا



تونسى بملابسه الوطنية

أما نساؤهم فيلبسن جميعاً القطعتين الزرقاوين المثبتتين بالمشابك التى سبق وصفها .

ويسكنون فى قرى فيها بيوت مبنية بالحجر تشبهاً ببيوت سكان المدن ، وهى مكونة من غرف مفتحة إلى أفنية داخلية ، وقراهم هذه مقسمة أحياء يفصل بعضها عن بعض بوابات ثقيلة تقفل عند ما يأتى المساء .

وسكان الواحات أهل جد وعمل ، تراهم دائبين لا يفترون على سقى حدائقهم ، إما برفع الماء من آبار عادية أو من عيون أو آبار ارتوازية يوزع ماؤها بين جداول صناعية : كل له شرب معلوم . وهى طريقة عرفوها واتبعوها منذ فجر التاريخ ! وكثيراً ما يستبدلون بالبوابة حبلاً من مسد ، يمد عبر الشارع ليلا ، فلا يجرؤ على اقتحامه أحد !

ومن العادات الغريبة عندهم أكل لحوم الكلاب ، لاعتقادهم أنها علاج ناجع للحمى !



توفسية من سكان البقاع الداخلية



فتاة من اهل واحات تونس

٤ – سكان الكهوف :

وأهم ظاهرة فى جنوبى تونس البيوت العجيبة المنحوتة فى الصخر الأصم بعضها ورثها أصحابها من أجدادهم الأولين الذين نحتوها وعاشوا فيها فى عصر ما قبل التاريخ ، وبعضها نحتها أصحابها على غرار الأولى !

وتوجد كهوف يسكنها الناس فى شرقى إسبانيا وفى اليابان ، وفى القوقاز وفى جنوب نهر الطونة ، وفى جهات أخرى من أفريقية ، ولكن بيوت تونس الكهفية ليس كمثلها شىء .

فعلى مقربة من بلدة شنين كهوف طبيعية فى منحدرات بعض التلال ، اتخذها الأوائل بيوتاً يأوون إليها لتعصمهم من قر الجو وقارس البرد فى الشتاء ، ومن حر الشمس الحارق ولهب ريح السموم اللافح فى الصيف ! ثم لم يلبثوا أن حسنوها بتهذيب حيطانها ، وتسوية سقفها ، وسد

فوهاتها الواسعة بحيطان مبنية ، تاركين فيها فتحات بمثابة أبواب لدخولهم وخروجهم ؛ وعلى مر السنين حذقوا نحت غرف تفتح أبوابها فى الكهف الطبيعى ؛ ثم عمد كثير ممن لم يجدوا كهوفاً طبيعية يتخذونها بيوتاً إلى نحت بيوت لهم فى جوار كهوف بنى عمومتهم ، وفضلوها على البيوت المبنية من الحجر والطين والزراب ، لتعودهم على سكنى الكهوف ، ولأنها أقل فى النفقة !

وقامت بذلك قرى فى سراديب متوازية !

وأبدع نوع من هذه البيوت الكهفية هى تلك التى فى هضبة مطماطا. ويتكون كل بيت من بيوتها من غرف واسعة وردهات وطرقات وسلالم !

ولأنها محفورة فى الهضبة فلا يراها الرائى ، وقد تكون بينها ولا تشعر بوجودها ، وقد تنزلق قدمك إلى ما يشبه الحفرة ، فتهبط على مائدة من حولها أفراد أسرة يأكلون !

وإن صخور هذه الهضبة لينة يسهل نحتها ، ولكنها متماسكة بعضها ببعض بحيث لا تنهار إذا صارت حيطاناً رقيقة تفصل بين الغرف والردهات والطرقات فى البيت الواحد أو بين بيتين متجاورين !

وطريقة صنع هذه البيوت هى أن تنحت مساحة مربعة ، طول ضلعها نحو ثلاثين قدماً لتكون بمثابة فناء البيت ، ثم تنحت الغرف الجانبية التى تفتح إليها كما هو الحال فى البيوت المبنية ! ويترك بعض قطع حجرية من غير نحت لتقوم مقام السرر والمقاعد والأخونة !

وفى بلدة مدنين أحدث البيوت الكهفية ، فإنها لم تعد كهوفاً

طبيعية كما بدأت ولكنها أصبحت بيوتاً منحوتة فى الصخر الأصم على نمطها : إذا رأيتها رأيت حائطاً صخرية عالية هى منحدر وعر لتل أو جبل ، يتخللها أبواب بعضها فوق بعض ، أو بجاور بعضها بعضا ، مؤدية إلى بيوت كبيرة منحوتة تحوى غرفاً وأفنية وردهات ، وشاهدت سلالم بارزة يرقى فيها السكان إلى بيوتهم !

ولا تظن أن سكان كهوف تونس قوم بدائيون كبعض الجماعات البدائية التى تسكن الغابات الاستوائية وبعض جزائر البحار ، كما يوحى بذلك طراز بيوتهم ! ولكنهم متحضرون ويفوقون غيرهم من سكانها فى بعض الصناعات التى اشتهروا بها ، وعرفت بهم !

ولا يستنكف سكان الكهوف من بيوتهم هذه ، بل إن بعضهم يفخرون بها ، ويدللون على أنها المأوى الطبيعى الذى يقى ساكنيه من حر الصيف وبرد الشتاء وعثير الرياح الهوج ! فوق أنها بمأمن عن الحريق والغرق والقنابل تعز على من رامها من اللصوص والأعداء ومن بينهم من يفرشون كهوفهم بالبسط والسجاجيد ويأثثونها بالزرابى والكراسى والسرر والنمارق والحشيات الوثيرة .

١١

على الرغم من أن فريقاً من سكان تونس ، وسكان المدن الساحلية بخاصة ، تأثروا بالمدنية الغربية الحديثة أيما تأثر فى طراز مساكنهم وأثاثها وفرشها ، وفى ملبسهم وحياتهم الاجتماعية ، فإن كثيراً من التونسيين لا يزالون يحافظون على كثير مما وجدوا عليه آباءهم من العادات والتقاليد والنظم! فلا يزالون يتبعون النظام الأبوى أى أن الأب هو رب البيت ورب أهل البيت ، وسيدهم المطلق الذى لا يعصى له أمر ، ولا ترد له كلمة ، يستشيره الأبناء مهما كبرت سنهم ، وعلت مراكزهم ، فى شئونهم الخاصة ، وإذا تزوج أحدهم أصبحت زوجته فرداً من أفراد الأسرة المطيعة لربها فلا تستقل بمسكن أو برأى !

وبيوت المحافظين من مسلمى تونس ليست كلأً مباحاً كما هو الحال فى بيوت يهودها ! ولكنها قلاع حصينة للمحصنات تعز على من رامها غيرِ أهلها !

وإليك وصفاً شيقاً كتبته سائحة إنجليزية أذن لها بعد لأى أن تدخل بيتاً من بيوت الطبقة العليا المحافظين قالت : وصلنا فى الموعد المحدد وفتح الباب الخارجى ، وهو باب ضخم جداً مكسو بصفائح من حديد على أشكال جميلة تملأها زخارف بديعة ، ودلفنا منه إلى فناء مربع ، فى آخره

باب آخر لا يقل ضخامة وجمالاً من الباب الأول ، طرقناه ففتحته فتاة زنجية ترتدى ملابس فاخرة ، وقادتنا إلى بهو كبير تحوطه دواوين مرتفعة قليلاً ومفروشة بالبسط والسجاجيد وعليها الزرابى والوسائد ! وهذا البهو مخصص لجلوس رجال الأسرة ولاستقبال الضيفان . ودلفنا من هذا البهو إلى بهو آخر أفخم وأكبر ، حيطانه مغطاة بالقيشانى الملون والنقوش العربية الجميلة ، تحيط به عمد رفيعة جميلة من الرخام الأبيض ، يحف بها عن اليمين وعن الشمال مقصورات ، وفى وسطه نافورة يخرج منها الماء من غير توقف ولا انقطاع ، ولقد رأيت غزالاً صغيراً يمشى البخترى ، فما كاد يرانا حتى نفر وأخذ يقفز قفزات رشيقة ! وانتهينا إلى غرف النوم ، وفى إحداها استقبلتنا ربة الدار ، وهى ربعة وجهها مدور أبيض ، لها وجنتان حمراوان وشعرها فاحم خفيف ! وكانت تلبس سراويل بيضاء من الحرير وسترة قصيرة فضفاضة لونها كلون الورد موشاة بالذهب والفضة ، وحذاء أصفر اللون مطرزاً بالذهب ، وقلائد مختلفة حول عنقها وحليات ماسية مثبتة فى شعرها وملابسها ! تقدمت إلينا وسلمت علينا ورحبت بمقدمنا ، وأسرع الخادمات بملابسهن الفاخرة بتقديم الكراسى فجلسنا ! وأخذت أجول بطرفى فى الغرفة فأينما وليت وجهى رأيت نقوشاً عربية بديعة ، وستائر من حرير مختلفة ألوانه ، ومرايا كبيرة فى إطارات من ذهب ، وسرراً مذهبة منقوشة نقشاً بديعاً !

وقبل مغادرتى الدار جاء ربها فرجوته أن يأذن لزوجته أن تزورنى فى

بيتى ، وأخبرته أنه سيكون خالياً من الذكور حتى الخدم مراعاة لتقاليدكم ، فاحمر وجهه غضباً ورفض رفضاً باتًا ، ومما قاله لى : إن نساء البيوتات الكبيرة فى تونس لا يسمح لهن بالخروج من بيوتهن كما يسمح المصريون والأتراك لنسائهم بذلك !

ولقد كانت السيدة التونسية ، إلى عهد قريب ، إذا أرادت أن تذهب إلى بيت زوجها الريفى ، دفع الخدم العربة إلى داخل البيت ، فتركبها وترخى عليها الستائر وتدفع إلى خارجه ، فتجرها الجياد إلى المنزل الريفى ، فإذا ما وصلت حل الجواد ودفعت العربة إلى داخل المنزل فلا يراها بذلك أحد !

ولا يستدعى الطبيب لزيارة نساء هذه الفئة إلاّ إذا اشتد عليهن المرض ، وعند ما يدعى لزيارة إحداهن تغطى بالملاءات البيضاء فلا يظهر منها إلا لسانها ورسغها .

أما نساء الطبقة المتوسطة فلا جناح عليهن إذا خرجن لزيارة الأهل أو لبعض شئونهن ، ولكن لا يخرجن إلا مصحوبات بخادماتهن ! إذا رأيت إحداهن رأيت كومة من الملابس البيضاء لا يظهر منها شيء ولا تصف منها عضواً ، تراها وقد أضفت فوق رأسها ملاءة بيضاء تخفى وجهها وتمسكها بيديها ممدودتين إلى الأمام فلا ترى من الطريق أكثر من متر !

* * *

وإذا أراد فتى تونس أن يتزوج ناب عنه أهله فى رؤية عروس المستقبل، أو قامت الخاطبة بذلك بتكليف من أهله بعد أن يعدد الصفات التى يريدها فيها : ومن الصفات التى يتمناها العرسان فى عرائسهم : لا يشتكى منها قصر ولا طول ، ولا نحف ولا سمن ، عيونها سوداء كعيون الغزلان ، جيدها كجيد الظبي ، لون خدودها كلون الورد ، ولسانها غير طويل .

فإذا رضى العريس وأهله ، وقبلت العروس وأهلها ، أقيمت حفلة صغيرة ، تقدم فيها الهدايا للعروس من حلى وعطور وأدوات للزينة ، وفواكه مجففة وأزهار جميلة ، كما يقدم حذاء مطرز وشمعة ذات خمس شعب لتدرأ العين الحاسدة ، ومقدار من النقود ويفضل أن يكون ذهباً كأجر للماشطة التى تقوم بتزيين العروس وإلباسها يوم زفافها ! وقد يضيف العريس قصيدة عصماء من شعره إذا كان شاعراً، يعدد فيها محاسنها وتسمى هذه قراءة الفاتحة !

ويعقد العقد بعد ذلك، وأغلب ما يكون فى أحد المساجد .

وحتى كتابة العقد لا يكون العريس قد رأى عروسه إلا إذا كانت جارة بالجنب أو ابنة عم أو خال له قد رآها صغيرة، ولازال يذكر محاسنها !

ويحمل الأثاث والفرش عادة من بيت العروس إلى بيت العريس على البغال ؛ ومن المناظر المألوفة الطريفة فى المدن التونيسية أن ترى رتلا من البغال محملة بالأثاث المذهب والفراش المطرزة تصحبها الفتيات الصغار

من أهل العروس وبيد كل منهن فرع من فروع الياسمين !

وفى اليوم السابق للزفاف يذهب العريس إلى حمام عام ، وفى المساء يولم وليمة فاخرة لأهله وصحبه .

أما العروس فتزين وتزف إلى بيت الزوج تتقدمها فرقة موسيقية تعزف ألحاناً مناسبة ، تتخللها زغاريد من يصحبنها من قريبات وصاحبات ! وهناك تقام الأفراح أياماً وليالى، يغنى فى أثنائها المغنون والمغنيات، وترقص الراقصات، وتقدم للمدعوين والمدعوات الخراف المشوية وأنواع مختلفة من الشراب ، وصنوف كثيرة من الحلوى !

١٢

جغرافية تونس

تقع تونس من شمالى أفريقية فى منتصف المسافة تقريباً بين قناة السويس ومضيق جبل طارق، حيث تبرز أفريقية فى البحر المتوسط فتقترب من أوربا فينقسم البحر المتوسط بذلك قسمين ، تشرف تونس على قسمه الغربى بساحلها الشمالى ، وعلى قسمه الشرقى بساحلها الشرقى ، وتسيطر من الجنوب على المجاز بينهما .

وإن لهذا الموقع الجغرافى البديع أهميته السياسية والحربية والاقتصادية التى ألمحنا إليها فى غير هذا المكان .

وتقع الجزائر فى غربها والمملكة الليبية المتحدة فى جنوبها الشرقى .

وتبلغ مساحة تونس ١٢٥١٨٠ كيلو متراً مربعاً .

وتمتد فى شمالى تونس من الجنوب الغربى[١] إلى الشمال الشرقى مجموعتان من الجبال، المجموعة الشمالية منهما امتداد لجبال أطلس التل، ويطلق عليها فى تونس مرتفعات كروميرى، وهى تنحدر إلى البحر انحداراً

(١) هذه الجبال امتداد لجبال أطلس التل وأطلس الصحراء التى تخترق الجزائر من غربها إلى شرقها والمسافة بينهما فى الجزائر أكثر اتساعاً ويحصران هضبة تسمى هضبة الشطوط .

وعراً ، ويسمى منحدرها هذا التل ، والمجموعة الجنوبية وتسمى النجد الغربى وهو امتداد لجبال أطلس الصحراء فى الجزائر . وتدنو المجموعتان من بعضهما بعضاً ويقل ارتفاعهما كلما اقتربا من البحر الذى ينتهيان إليه برأسين لا يفصل بينهما إلا خليج تونس (٦٠ ميلا) ويحصر المجموعتان بينهما وادى مجردة الخصيب ، ويتخللهما ممرات يسرت اتصال الجهات الواقعة جنوبهما بالجهات الواقعة شمالهما .

وينحدر النجد الغربى نحو الجنوب انحداراً شديداً نحو إقليم متسع تتخلله تلال قليلة الارتفاع يطلق عليه إقليم المنبسطات .

ويلى إقليم المنبسطات جنوباً منخفض شط الجريد المتسع الذى يمتد من حدود الجزائر تقريباً إلى مقربة من ساحل خليج قابس .

ويلى ذلك المنخفض نجد متسع قاحل يمتد شرقاً إلى المملكة الليبية المتحدة مكوناً جزءاً من تضاريسها .

ويمتد شرقى تونس بين سوسة وصفاقس سهل خصيب مشرف على البحر المتوسط يعرف هناك بالساحل .

* * *

تمتد تونس بين خط عرض ٣٠° شمالاً من الجنوب وخط عرض ٣٧° ٢٠َ شمالا من الشمال وهى لذلك فى حيز منطقة البحر المتوسط ذات الشتاء الدافىء والصيف الحار [١] ، وتهب عليها الرياح التجارية الجافة فى

(١) ولو أن طول ساحل تونس ٩٠٠ ميل ولهذا يعمل البحر على تلطيف الحرارة صيفاً وشتاء إلا أن المناخ يميل إلى التطرف .

الصيف فلا تسقط إلا قليلا من الأمطار على الأجزاء العليا من السفوح الشمالية لجبال أطلس التل ؛ أما فى الشتاء فتهب عليها الرياح الجنوبية الغربية ، وتمر بها بعض الأعاصير فيسببان سقوط الأمطار فى أنحائها المختلفة .

وتقل الأمطار فى تونس من الشمال إلى الجنوب (١) حتى لتكاد تنعدم فى المناطق الجنوبية القصوى (٢) ، وهى ليست منتظمة فى الجهات المختلفة

---

(١) يسقط ٣٠ بوصة فى الشمال ، ١٨ بوصة حول تونس و ٧ بوصات بالقرب من قابس .

(٢) كتب الأستاذ محمد بودن التونسى فى مقال له فى إحدى المجلات التونسية تحت عنوان تونس فقيرة ! كلا ! ولكن عطش ما نجمله فيما يلى :

قسم تونس من حيث نزول المطر قسمين : قسم ممطر وهو الشمال ، وقسم جاف وهو الوسط والجنوب والساحل ، ومساحة القسم الممطر أقل كثيراً من مساحة القسم الجاف وإن الحياة فى القسم الأخير متعسرة جداً وبخاصة عند استمرار الجفاف سنوات متوالية ثم يعلل قلة السكان الآن (٣٫٨٠٠٫٠٠٠) وكثرتهم فى عهد الرومان (٧٫٠٠٠٫٠٠٠) بوفرة المياه فى القسم الجاف ويسأل عن سبب الجفاف ؟ ويجيب مستبعداً تناقص الأمطار بسبب تغير الطقس مستنداً إلى آراء الجغرافيين ، ويرجعه إلى عوامل بشرية وأولها تخريب الكاهنة لمزارع الزيتون والأشجار المثمرة وإتيان بنى هلال على البقية الباقية ، وعبث الأيادى بأشجار الغابات ففقدت بذلك تونس العنصر الأساسى لجلب المطر وهو الغابات ، ذلك أن خضرة الأشجار تستدعى السحب وأن ظل هذه الأشجار يحمى الأرض من حرارة الشمس فتمكث باردة ، وبرودتها هذه توفر الأسباب لنزول المطر .

وأول نتيجة لقلة نزول المطر هى تجفف الآبار ، إلا أن هذا التجفف كان فادحاً أحياناً لا نسبة بينه وبين قلة الأمطار وخصوصاً فى بعض الأماكن المطرة نسبياً — ويستطرد فيرجع ذلك — معتمداً على رأى بعض الجغرافيين إلى كثرة مياه السيول التى تنطلق إلى البحر جارفة التربة =

التى تنزل فيها فتقل فى سنة عنها فى أخرى ، وعلى الرغم من قلة الأمطار فى المناطق الجنوبية فإن الله سبحانه قد حباها بمياه جوفية تتفجر عيوناً تقوم حولها واحات خصيبة كثيرة البساتين !

=ولا يحجزها حاجز بعد تخريب الغابات وتجرد سفوح التلال والجبال من كل نبات كان من شأنه أن يعطل السيل و يجبر الأرض على ابتلاع الماء فتروى به العيون والآبار : ثم ذكر أسباباً أخرى منها أن الفلاح فى قديم الزمان كان يحرث نصف أرضه كل سنة و يبقى النصف الآخر للراحة تغمره الأعشاب التى تغذى مواشيه وتحتفظ بقسط وافر من الماء فتبتلعه الأرض وتروى به طبقاتها .

أما الآن فقد أصبح الفلاح العصرى يحرث كل أرضه و إذا بها جرداء عند نزول المطر فى الخريف عاجزة عن حجز المياه بفقدانها للأعشاب » .

ومنها أنه فيما مضى كان الفلاحون يقسمون سفوح الهضبات طبقات أفقية (مدرجات) متوالية و يحيطونها بحواجز صغيرة ، فإذا ما هطلت الأمطار امتلأت تلك الحقول ماء واستحال السيلان وارتوت الأرض .

أما الآن فلا يرى الفلاح ما رآه أجداده رأياً ، فأزال الحواجز تسهيلا لأعماله الحراثية فكانت النتيجة الحتمية سيلان المياه وانصرافها إلى البحر حاملة تربة الأرض الصالحة وجفاف الأرض ونضوب المعين الذى يمد الآبار والعيون بالماء .

ويقترح فى آخر مقاله تلافياً لهذه الحال الأسيفة ما يأتى :

١ — زرع الغابات وبخاصة فى الأماكن التى لا تصلح للزراعة .(و يقصد زراعة الحبوب)

٢ — تحريم صنع الفحم الخشبى ولو إلى حين .

٣ — انزال المطر صناعياً .

٤ — الاحتفاظ بمياه الأمطار كما كان يحتفظ بها الأقدمون مترسمين طرقهم فى ذلك !

٥ — استنباط الماء أينما وجد .

ولا يوجد فى تونس أنهار جديرة بالذكر غير نهر مجردة الذى يبلغ طوله نحو ٢٢٨ ميلاً[١] . وينبع فى جبال الأطلس فى الجزائر ويجرى نحو الشمال الشرقى بين أطلس التل وأطلس الصحراء ، ويصب فى خليج تونس شمال مدينة تونس ، ويتلقى فراعاً كثيرة أشهرها نهر سليانة ونهر ملاق !

ونهر مجردة فى رأى بعض الكتاب يمثل أخلاق العرب سكان واديه ، فبينما نجده يجرى رخاء كأنما أصابه خدر ، إذ به سيل جرافٌ يكتسح كل شىء فى طريقه من جسور وبيوت وأنعام .

ويوجد نهر صغير يسمى نهر مليان ، وهو اسم على غير مسمى إذ تنضب مياهه معظم أيام الصيف ،ويجرى موازياً لنهر مجردة ويصب فى خليج تونس جنوب مدينة تونس .

كما توجد أنهار داخلية لا تصل إلى البحر ، ولكنها تصب فى سبخات أهمها نهر الزرود الذى تنصرف إليه معظم ما يسقط من أمطار على القسم الشمالى من إقليم المنبسطات بواسطة أودية عدة أكبرها وادى حطب ووادى الفكه !

* * *

وينمو فى الجهات الشمالية كثيرة الأمطار غابات (مساحتها $2\frac{1}{2}$ مليون فدان) من شجر الزان والبلوط دائم الاخضرار والأرز الحلبى ، وينمو فى

---

(١) يبلغ متوسط تصريف نهر مجردة اليومى فى الشتاء نحو ١٠٠٠ متر مكعب على حين ينخفض تصريفه فى بعض أيام الصيف إلى متر مكعب واحد .

مرتفعات كروميرى نوع من البلوط يصنع منه الفلّين ! ويتخلل الغابات الأحراج والكلأ !

وينمو فى الجهات الوسطى الأرز الحلبى والبلوط .

أما فى الجهات الجنوبية فينمو شجر الزيتون وأبو فروة والعرعر ويغطيها كلأ السهوب !

وفى المرتفعات والنجد العربى بخاصة ينمو نوع من الحشائش يسمى « اسبارتو » يقطع ويصدر معظمه لاستعماله فى صنع نوع من الورق الجيد !

وتونس كإقليم مصر بلد زراعى تزرع فيه الحبوب المختلفة وبخاصة فى إقليم التل ووادى مجردة ، ومن أهم مراكز إنتاج الحبوب[١] ماطر وباجه وسوق الخميس وسوق الأربعاء والكاف وسليانه ، وتبلغ مساحة الأرض المنزرعة نحو ٧ ½ مليون فدان .

وتزرع مساحات كبيرة من شجر الزيتون[٢] فى إقليم الساحل وفى شبه جزيرة المعاوين الممتدة بين خليجى تونس والحمامات ، ويستخرج

---

(١) مساحة الأراضى المنزرعة حبوباً ١,٥٩٠,٠٠٠ هكتار وتبلغ المساحة المنزرعة قمحاً وشعيراً ٩٣٪ منها .

(٢) تبلغ عدد أشجار الزيتون فى تونس نحو ٢٣ مليون شجرة ، وتعد تونس الرابعة فى ترتيب أقطار العالم ، فى زراعته ولا يفوقها فى ذلك إلا إسبانيا وإيطاليا واليونان وتبلغ أنواعه نحو عشرين .

من ثمره زيت الزيتون الذى يصدر إلى فرنسا وبريطانيا لتكريره .

وتنمو أشجار فواكه البحر المتوسط كالبرتقال[1] والكروم واللوز والليمون والتين فى شبه جزيرة المعاوين وفى الجهات الواقعة شمال جبال أطلس التل .

وفى معظم جهات تونس وبخاصة فى الجنوب تزرع الأزهار التى يستخرج منها الروائح العطرية التى اشتهرت بها تونس وأهمها الورد والياسمين .

وينمو نخيل البلح فى الواحات وفى الجهات القريبة من قابس وشط الجريد وينتج محصولا جيداً كل عام ، والبلح التونسى من أجود أنواع البلح فى العالم .

وتربى فى المراعى التى تنمو فى إقليم المنبسطات الأغنام والمعزى والبقر والبغال والخيل والحمير والجمال ! وأهم منتجات تلك المراعى الصوف والشعر وجلود الضأن والمعز ، وتقوم على بعض هذه المنتجات صناعة البسط والنمط وأهم مركز لهذه الصناعة مدينة القيروان !

وتونس غنية بمعادنها ، فهى ثانى أقطار العالم إنتاجاً للفوسفات ، ويستخرج من أرضها ومن جبال الأطلس بخاصة الزنك والرصاص وكذلك الحديد والنحاس ! كما يستخرج الفحم من شبه جزيرة المعاوين .

وتشتهر تونس بصناعات عدة ،أحراها بالذكر صناعة الشاشية (الطربوش والسجاد والخزف ونسج الحرير والصوف ونقش النحاس والفضة . وأهم صادراتها القمح والزيت والفوسفات وبعض المعادن الأخرى والخمور .

---

(١) وبرتقال تونس جيد يصدر منه نحو ١٥٠٠٠ طن .

وأهم وارداتها المنسوجات والبضائع المصنوعة الأخرى والآلات الحديدية.

* * *

سكان تونس : ويبلغ عدد سكان[1] تونس ٣,٧٩٥,٥٥٥ نسمة التونسيون منهم يبلغون نحو ٣,٤٤٨,٠٠٠ منهم ٢,٨٣٢,٩٧٨ مسلمون و ٧٠,٩٧١ إسرائيليون أما عدد الأجانب فيبلغ ٣٢٧,٠٠٠ .

أهم المدن :

تونس : عاصمة البلاد وأكبر مدنها وموانيها، واقعة على بحيرة تونس الضحلة التى تخترقها قناة عميقة توصلها بمينائها الخارجى لاجوليت طولها نحو عشرة كيلو مترات ، وإن لتونس الميزات الطبيعية التى كانت لقرطاجنة وكانت سبباً لعظمتها : فهى واقعة على البحر[1] عند المنفذ الطبيعى لسهل التل الخصيب الممتد فى شمالى تونس والجزائر ، وحيث الطريق إلى وسط تونس وجنوبيها، وهى منتهى عدد من الخطوط الحديدية الآتية من وادى مجردة الخصيب ذى المحصول الوفير ، وسوسة المتصلة بإقليم قفصة موطن الفوسفات، وتوزر أهم وسط لإنتاج البلح، والخطوط البحرية والجوية الآتية من الأقطار المختلفة .

ويبلغ عدد سكانها نحو ٤١٠,٠٠٠ نسمة منها ٢٧٢,٠٠٠ من الوطنيين و ١٣٨,٠٠٠ من الأجانب، ومن ضواحى تونس الهامة بلدة باردو الجميلة وتقع غربى تونس وعلى بعد أربعة كيلو مترات منها فى وسط مروج

---

(١) بحسب إحصاء سنة ١٩٥٦ .

خضراء وبساتين غناء ، وهى محرفة عن الكلمة الإسبانية (Prado) أى الروض أو المرج ، وكان يتخذها ملوك تونس وبايَاتها مقراً لهم يبنون فيها قصورهم لطيب هوائها وبرد صيفها.

صفاقس : واقعة على الساحل الشمالى لخليج قابس ، وهى عاصمة جنوبى تونس الإدارية ومن أهم مراكزها الاقتصادية ، ومن أعظم الأوساط لزراعة الزيتون، وإليها ينتهى الخط الحديدى الذى ينقل إليها الفوسفات من قفصة فتقوم بتصديره ، وميناؤها صناعى ، مركز هام لصيد الأسماك .

ويبلغ عدد سكانها نحو ٦٦ ألف نسمة منهم نحو ٥٦ ألفاً من الوطنيين والباقى من الأجانب .

بنزرت : واقعة على الساحل الشمالى لتونس على خليج مسمى باسمها وهى قاعدة حربية هامة عمل الفرنسيون على تحصينها وتوسيع مينائها حتى قيل إنه يتسع لأساطيل العالم جميعها ، ويبلغ عدد سكانها نحو ٤٥ ألف نسمة منهم نحو ٣١ ألف من الوطنيين والباقى من الأجانب .

القيروان : أهم المدن الداخلية وأقدس المدن التونسية عند التونسيين وأعظم المدن الأثرية، وهى الآن وسط هام للتعدين ، وصناعة السجاجيد، وشهرتها فى صناعة السجاجيد عالمية .

ويبلغ عدد سكانها ٣٤ ألف نسمة ولا يوجد فيها من الأجانب إلا عدد قليل على خلاف المدن التونسية الأخرى !

قابس : مركز لحدائق النخيل ويبلغ عدد سكانها نحو ٢٥ ألف نسمة . مشهورة ببساتينها وبحدائقها الكثيرة التى قيل إنها تبلغ سبعة آلاف حديقة أو تزيد، ولقد برع أهلها فى زراعة الحدائق والبساتين حتى قيل إن كل قابسى بستانى .

توزر [١] : عاصمة واحات الجنوب ، مشهورة بما فيها من عيون وهى من المدن العتيقة .

---

(١) مدينة عتيقة ازدهرت فيها المدنية منذ عهد الرومان ! لقد وضع أحد أبنائها العالم ابن الشباط التوزرى فى القرن السادس الهجرى طريقة هندسية دقيقة لتوزيع مياهها بين بساتينها ولا تزال معمولا بها حتى الآن !

مراجع الكتاب

ا ــ مراجع عربية :

١ ــ الدكتور إبراهيم زرقانة : العائلة البشرية .

٢ ــ حسن حسين عبد الوهاب : تاريخ تونس

٣ ــ ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب

٤ ــ الواقدى : فتوح أفريقية

٥ ــ البكرى : المغرب

٦ ــ ابن خالد : الاستقصى لأخبار دول المغرب الأقصى

٧ ــ السعدى : تاريخ السودان

٨ ــ ابن خلدون : المقدمة

٩ ــ محمد رفعت : التيارات السياسية فى البحر المتوسط

١٠ ــ محمد أحمد حسونة : الجغرافية التاريخية للإسلام

١١ ــ مصطفى صادق الرافعى : صور إسلامية

١٢ ــ الدكتور حبيب تامر : هذه تونس

١٣ ــ دكتور حسين مؤنس : مصر ورسالتها

١٤ ــ محمد العروسى المطوى : الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب

١٥ ــ دكتور حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية بأفريقية

١٦ ــ علي البهلوان : تونس الثائرة

١٧ ــ محمود عزمى : بلاد المغرب (مقال)

١٨ ــ يوسف يزبك : وحشية اليهود فى إحدى جرائمهم المذهبية (مقال)

١٩ ــ محمد بودن : تونس فقيرة ؟ كلا ! لكن عطشى

٢٠ ــ تفسير الطبرى

٢١ ــ رحلة العبدرى

ب — مراجع إنجليزية وفرنسية :

1. Ellsworth & Huntington : Climate and Civilisation.
2. ,, ,, : The Pulse of Progress.
3. ,, ,, : The Pulse of Asia.
4. Flinders Petrie : The Egyptians.
5. Sligman : Races of Africa.
6. Count Byronkhun de Porok : Ancient Carthage in the Light of Modern Excavation.
7. Synge : A Book of Discovery.
8. Herbert Vivian : Tunisia.
9. H.G. Wells : The Outline of History.
10. A.C. Haddon : The Races of Man.
11. ,, ,, : The Wanderings of Peoples.
12. J. Fairgrieve : Geography and World Power.
13. S. Ameer Ali : A Short History of the Saracens.
14. Mc Meckel : A History of the Arabs in the Sudan.
15. F. Rodd : A Second Journey among the Southern Tuareg.
16. Sir T. Arnold : The Preaching of Islam.
17. M. Shoemaker : Islam Lands.
18. J.H. Harris : Africa, Slave or Free.
19. D. Frazer : The Future of Africa.
20. J.A. Hammerton : The Wonders of the Past.
21. ,, ,, : Peoples of all Nations.

22. J.A. Hammerton : Countries of the World.

23. ,, ,, : Universal History.

24. The Royal Geogaphical Magazine.

25. The National Geogaphical Magazine.

26. Encyclopedea Britannica.

27. S.H. Beaver & Dudley Stamp. Africa.

28. E. Demolins : Comment La Route Crée le type Social.

29. E.F. Gautier : The Sahara.

30. ,, ,, : Les Siècles Obscurs du Maghreb.

31. E. De Martonne : Traité de Géographie Physique.

فهرس

الصفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

شعوب العالم

٥

لكل شعب من شعوب العالم تاريخه وخصائصه كما له عاداته وتقاليده وجوانب طبيعية أو حضارية يتميز بها عن سواه من الشعوب . ومعرفة ذلك كله لا تضيف أعماراً إلى أعمارنا فقط بل تنمى معارفنا وتوثق صلاتنا بأجزاء هذا العالم وأطرافه مما يساعدنا على أن نفهم تلك الشعوب فإذا فهمناها عرفناها لأن الفهم طريق المعرفة وإذا عرفناها أحببناها لأن المعرفة سبيل المحبة وإذا أحببناها وصلنا ما انقطع من أسباب التآخى بين عباد الله .

* صدر من هذه المجموعة :

١ – اليابان

٢ – الصين

٣ – إندونيسيا

٤ – ليبيا

